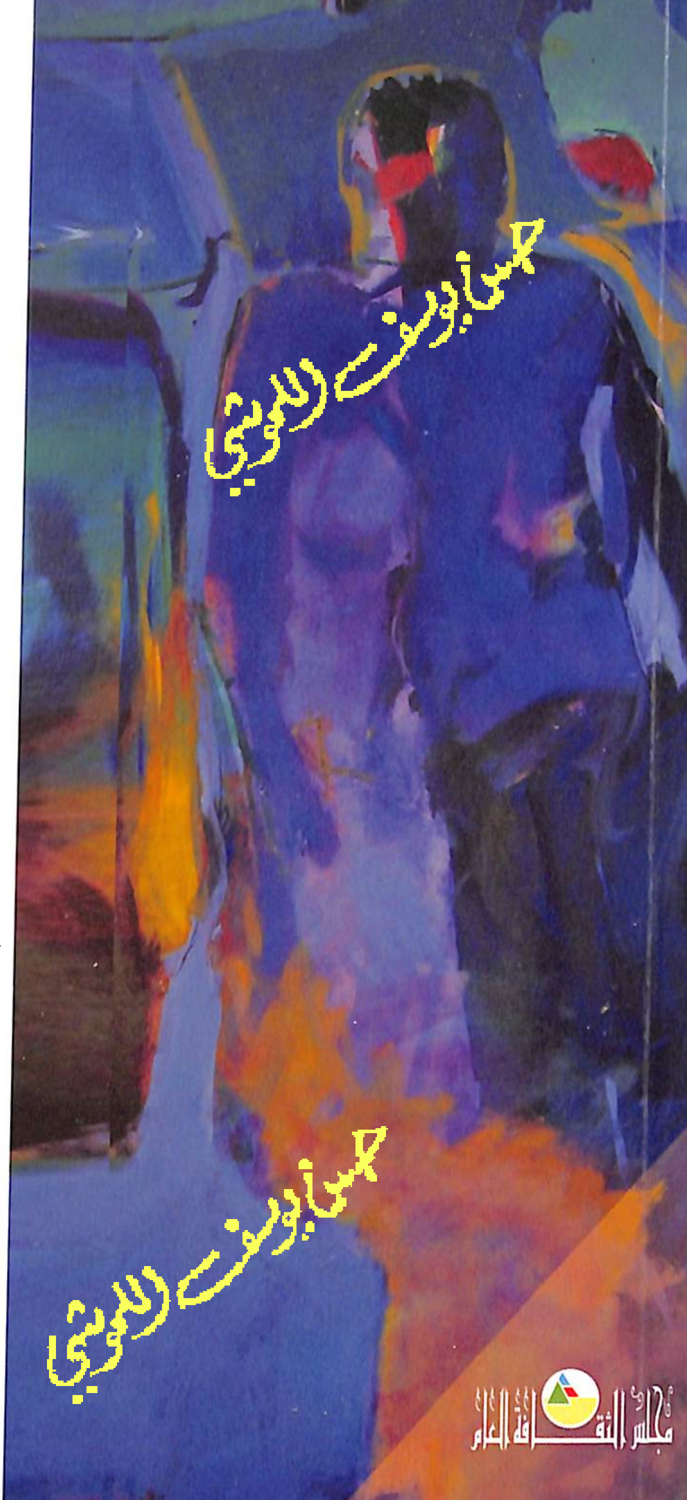
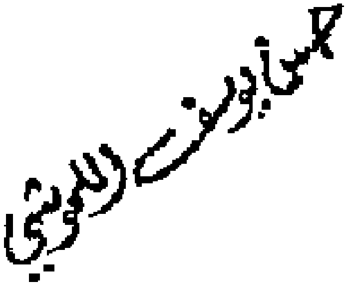
مذكرات عامل

نقطة من محيط الظلم الإيطالي



فتح الله المقصبي

مجلس الثقافة العام



مذكرات عامل
نقطة من محيط الظلم الإيطالي

مذكرات عامل

نقطة من محيط الظلم الإيطالي

فتح الله سليمان المقصبي

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتـاب	مذكرات عامل (نقطة من محيط الظلم الإيطالي)
اســـم المؤلـف	فتح الله سليمان المقصبي
سـنـة النــشــر	2008 م
رقــم الإيــداع	147 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)
الترقـيم الدولـي	978 - 9959 - 38 - 816 - 2

تـصميم الغـلاف	علي العباني
لــوحــة الغـلاف	يوسف فطيس
التنفـيـذ الفنــي	دار قـــباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فــرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فــرع بنغــازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

الإهـــداء

إلى الـذين جمعهـم العمـل في مـنطقة القـيقب أيـام الحكـم الإيطالـي المريـر إلى أولـئك البؤسـاء الـذي أنهكهـم العمـل بقـسوته، وعـضهم الجـوع بأنـيابه وشـدته وأحـرقهم الـصيف بحـر شمـسه ونطـق هجـرته ونفـذ إلى عضامهم برد الشتـاء وقرته، وتحملوا اضطهاد انجيس وعذابه وسطوته ...

إلى الذين يذكرون تلك الأيام السوداء العصيبة التى قضيت في قـصر القـيقب تحـت الحكـم الإيطالـي وسـلطة الكـرابيناري انجـيش وعذاب العمل المضنى وجشع الشركة المستغلة سالبة الحقوق وأكلة العرق الأسود، وممتصة الدماء ...

إلى الـذين لا يـزالون يذكـرون هذا ولا يـنسون أبـداً لما لحـق مـن عذاب وألم واضطهاد ..

إلى الـذين نـسوه ونـسوا الـماضي بمـا فـيه مـن أعمـال إيطالـيا الوحشية وحكم رجال المستبدين ...

إلى هـؤلاء جمـيعاً خاصـة، وإلى كـل عامـل عمـل إبـان الحكـم الإيطالي عامة

أهدى كتابي هذا ..

ليتذكر من يتذكر ويعي من نسى

فتح الله سليمان المقصبى

عندما فكرت حكومة إيطاليا في شق الطريق وتعبيدها في ولايـــة برقة، ورأت أن هذا المشرع الضخم لم تستطع البدء فيه إلا إذا تمكنت من القبض على رقاب الشعب وتكبيله، لأن العمل يتطلب عمالاً كثيرين، ولا يتسنى الحصول على هذا العد الهائل مـــن العمال من هذه الولاية غير المسالمة والتي يكاد جل أهلها يكونـــون متمـــردين علـــى الدولة إلا إذا اتخذت الحكومة خطة مرســـومة تـــسيس بهـــا قـــياد الشعب ويصبح من أهل التبعية والخـــضوع، وتمكنها من جمع أكبر عدد من العمال المواطنين، وتـــستطيع بموجـــبها أن تـــتغلب على المجاهدين الذين يقلقون راحـــتها ويقللـــون مـــن سطوتها وسيطرتها ويقفون بالمرصاد لإحـــباط جميع خططها ومشروعاتها الاستعمارية فبدأت بإجلاء المواطنين أهل البادية عن أراضيهم ومزارعهم، وأحرقت جميع المنقولات والزراعة ومحصولاتها وأهلكت الكثير من الحيوانات وســـاقتهم جابا مئات الأميال، تضرب بالرصاص العاجزين عن الـــسير، وتـــضرب القادرين عليه من الرجال والنساء بالسياط، وتعـــذبهم بأبـــشع أنـــواع العذاب التي تذوب لها حبات القلوب، وتهيج لها الأشجان وتستدرف الدموع، حتى أوصلتهم إلى أرض رملـــية لا ماء فيها ولا كلأ، واعتقلتهم داخل الأسلاك الشائكة،

فمـــات أكثرهم من الجوع والعطش والأوبئة، وهلك ما تبقى من المواشي، وأصبحوا فقراء الذلاء بعد العزة والكرامة.

وحضر المواطنون المدنيون داخل المدن وأغلقت أبوابها ومنعـــتهم مـــن الخـــروج إلى سوادها وحرمت عليهم الزراعة وتـــربية المواشـــي وبـــذلك أضـــعفت قوتهم استنزفت أموالهم وأرواحهـــم بالـــباطل والعـــدوان وبحجـــة اتصالهم (بالعدو) بالمجاهـــدين الأحـــرار، وخـــيم على الشعب الفقر والجوع في المعتقلات والمدن.

وبعـــد أن نفـــذت هذه الخطة المرسومة وأصبح الشعب داخـــل أســـلاك المعتقلات الشائكة والمدن المغلقة كالتين داخل الفـــرارة تـــركته بـــرهة من الزمن ليست بالقصيرة يعاني الألم والفقـــر والمرض ويتجرع الفصص لفقد الأهل والخلان ويعيش على فتات من العيش الزهيد لا تسمن ولا تغني من جوع.

وعندما تم لإيطاليا ذلك، ورأت أي العين أن الشعب قد اســـتقر في الدرك الأسفل من العبودية مكبلاً بسلاسل البؤس والـــشغب والـــشقاء، وأصـــبح ضـــعيفاً هـــزيلاً ممزقاً، وأن مؤامراتها المحبوكة قد أتت ثمارها المرجوءة بادرت الحكومة (الحـــنونة) التـــي لا يهمها أن تبيد وتسحق الشعب وتجعله

دماء وجماجم وأشلاء إذا كان في ذلك ضمان لسلامتها وعون على تنفيذ مأربها.

بادرت الحكومة بعد أن ارتكبت الجريمة لتخفيفها واجباً لا جــريمة، لأن دستورها قتل الأب وتربية الولد: قتل الأب الولود الشجاع المناضل وتربية الولد العقيم الخاضع المستكين.

بادرت للشعب الذي حكمت عليه بالموت جوعاً وبالإعدام شــنقاً داخل المعتقلات والمدن لكي تتسم بالعطف والرحمة على بقية شعبها البائس الجائع لكي يتحصل على الطعام والمال.

بــادرت إلــى إيجاد العمل وبدأت بعض مظاهر العطف والــرحمة، ولكنها رحمة لا تخرج عن نطاق الخطة المرسومة فــي مــشروعها الخفي (شق الطريق) لأنها لم يعد أمامها ما تخشاه بعد أن كبلت الشعب بسلاسل الفقر والعبودية والاضطهاد داخــل المدن وأسلاك المعتقلات. فاستعدت شركات المقاولات مــن إيطالــيا وأعطــت لكــل واحــدة منها قطعة من الطريق وصرحت لها بأخذ العمال العرب.

فمــا أن نفــذت الشركات ولوحت بالأوراق المالية حتى تهافــت العمال على الشركات تهافت البقر العجاف على الكلأ لعلهم يجدون في كنفها غذاء كافياً يقيم الأولاد ويمسك الرمق،

ويحصلون على الفرنك الذي قل بل انعدم بسبب إبطاله التي خلقتها إيطاليا في ذلك الوقت العصيب لتتمكن بسببها من القبض على رقاب الشعب العاصي (كما كانت تقول) وتخضع وتذل الرجل الأبي حتى يصبح عاملاً خاشعاً ذليلاً سهل الانقياد.

وتقدم الرجال إلى الشركات، سواء في ذلك العامل والمزراع والصانع والتاجر آملين في رفع مستوى معيشتهم الذي انحط إلى الحضيض، وسجل كل منهم اسمه وقدّم دفترائيات شخصية إلى الشركة المستقلة وصاحبة الحق في الترخيص بالخروج لمن ينتمي إليها سواء كان داخل أسلاك المعتقلات الشائكة أو داخل البلد المحصور، حتى امتلأت جميع المراكز المشرفة على طول الطريق.

وكنت ضمن خلق كثير أعطوا دفاترهم إلى أحد الإيطاليين يدعى (مانويلي) قدم درنة مندوباً عن شركة إيطالية برأسها إيطالي يدعى المهندس (فينيالي) وكان دفتر إثبات الشخصية في ذلك الوقت بمثابة قيد وثيق لصاحبه الذي لا يستطيع أن يغادر أي مكان أو يترك أي عمل بدونه. وكل شخص يقع في أيدي رجال السلطة يكون مصيره الموت

العاجل أو السجن والعذاب الشديد. لذلك كان العمال بمثابة عبيد أرقاء للشركة التي تملك دفاترهم تسوقهم نحو أغراضها كما تساق الماشية.

وفي يوم 1921/2/12 احتشد جميع غفير من العمال الذين تحصلت عليهم الشركة أمام باب بنغازي، وبعد حصر عددهم من قبل سلطة الكرابيناري والوثوق من شخصيتهم وأسمائهم سمح لهم بالركوب داخل السيارات الكبيرة التي كانت واقفة في انتظارهم لحملهم إلى القيقب مقر الشركة وحيث توجد حصنها من الطريقة المزمع إنشاؤها وسارت بهم السيارات وهم في نشوة من الفرح والابتهاج لخروجهم من البلد المقفول أو بالأحرى من السجن البغيض الذي كانوا يعيشون فيه دون عمل. ولكنهم لم يدروا أنهم يساقون من سجن إلى سجن .. من سجن واسع إلى سجن ضيق حارسه متكبر جبار يشتم ويلعن ويجلد دون ذنب مرتكب.

واجتمع في ذلك العمل أكثر من ستمائة عامل، يخرجون من قصر القيقب كل صباح كأنهم جراء منتشر ولا يعودون إليه إلا آخر النهار التي بعد أن يمضو طيلة اليوم في العمل المضنى تحت وهج الشمس المحرق تحيط بهم نار بنادق جنود الأحباش

مصوبة إليهم خوف أن يهرب من العمال أحداً أو يتصل لهم (العدو) رجال العصابات المجاهدون.

وعـــندما يـــرجع ذلك السير من العمال قبل الغروب بأيد دامـــية وأجـــسام مرتخية ممن وطأة التعب، ينادي المنادي من رجـــال الزبطية (ريقه) أي جمع، فيصطف الجميع في طابور طويل كما يصطف الجنود ويحضر (القائد) وكان ذلك القائد (مسئول المركز) كرابينارى إيطالى برتبة (بونتاتو – كبرن). وكـــان شر خلق الله، فيه من الكفر والغطرسة والشدة أكثر من أي إيطالي من نوعه ألف مرة ومرة.

وهـــو مـــشهور بهـــذه الـــصفة في جميع مراكز الجبل الأخضر، ويكفي أن تذكر اسمه (انجيس) لأي عامل بين درنة وشحات فيجيبك:

– يا لطيف من هذا المارد الجبار المخيف.

لما لاق العمال على يديه من قسوة وشقاء وظلم وبلاء .. كنا نضرب مثلاً فنقول:

– الهـــم والـــضيق مـــوكلان بمـــراقبة جميع مراكز الجبل الأخضر، أما مقرها الرئيسي فهو القيقب ...

كـــان القـــيقب فـــي ذلك التاريخ أي من الوقت الذي كان موجـــوداً بــــه انجـــيس هـــذا، مقراً للبؤس والألم والشقاء، وكان الموجود به لا يمضي عليه يوم من دهره أو ساعة من يومه دون أن يـــره أحـــد مطـــروحاً للسياط أو مركولاً بالأقدام أو مضروباً بالعـــصا مـــن ذلك اللعين انجيس الذي لا يرحم كبيراً ولا يشفق علـــى صـــغيراً، لأن له قلباً قاسياً كأنه قد من صخر كان أولئك العمـــال الذي طوحت بهم الأقدار وساقهم طلب الرزق الذي عز فـــي تلـــك الأوقات العصيبة .. أوقات الشدة والضيق .. في تلك الأيام السوداء التي أصبح فيها التاجر عاملاً والسيد خادما بفضل خطـــة الحكـــومة (الرشـــيدة) التي ترى في غنى الشعب أعظم خطـــر يهـــدد وجودها وكيانها فهي لذلك قد بذلت أقصى جهدها ليصل الشعب إلى ما وصل إليه من فقر وخضوع ..

كان هؤلاء العمال قد سائهم سوء الحظ ونحس الطالع إلى ذلـــك الكـــرابيناري اللعين وإلى ذلك المركز المريرة بل إلى تلك الهاويـــة .. هاويـــة الشقاء العميقة يجاهدون لأجل الخلاص من الفقـــر والحـــرمان والجوع، ويتحملون المتاعب والآلام في سبيل أنفسهم والحصول على بعض ..؟ يرسلونها لأهليهم كما الرغيف من الخبز يسكنون به صباح أطفال هاجمها الجوع المرير ...

كــل أكثر هؤلاء العمال (بفضل إيطاليا) صفاة عراة لا يملكــون إلا اطمــار بالــية قــد تآكلت بمرور الأيام والشعور يضعونها فوق أجسام ضعيفة هزيلة، قد أنفها الفقر والتعب ونال منها الاستعمار ما يبقى وما يريد ..

يخرجون في الصباح الباكر في طابور طويل تحت رقابة انجــيس كالأسرى، ثم يوزعون جماعات جماعات على أماكن العمل تشق الطريق وسط الربا والوهاء تحت حر الشمس ولفح الهجر أيام الصيف، وفي البرد والزمهرير أيام الشتاء، حتى إذا تمــر غــربت الشمس أو كادت يرجعون إلى أوكارهم يجرون أرجلهم جرا تحت وطأة العمل وقسوته حتى إذا بلغوها وقد سقط من سقط على الأرض من شدة التعب والأعياء، وقام من به من بقية من القوة والجلد..؟ طعام العشاء.

هــنالك يــنادى المــنادى (ريقه) جمع، فيترك الطاهي طعامــه ويقوم المضطجع من على أرضه، ويسعى العاجز رغم أنفــه خوفاً من التنكيل والتعذيب ويصطف الجميع أربعة أربعة، ويــبدأ العــد وكان الموكل به أحد رجال الزبطية وكان حبشيا يدعــى (هــاتلاى)، وكــان رجلا ساذجا، لا يتقن العد باللغة

الإيطالــية، وكان كثيراً ما يلغط قبل أن ينتهى من ذلك الصف الطويل يؤلفه أولئك العمال الكثيرون ...

كـــا هاتلاء هذا عندما يغلط (وكثرا ما يغلط) أثناء العد يهز رأسه ويقول:

- (نو . زبلياتو) أي غلطت ويبدأ في العد من جديد.

أمـــا إذا غلـــط في الثانية والثالثة، فإن انجيس يتولى العد بنفـــسه، وفي تلك اللحظة تنزل الطامة الكبرى بأن انجيس دائما العصا في يده فيبدأ العد بالعصا:

- واحـــد .. اثنين .. الفم ينطق والعصا تنزل على الرؤوس والأكتاف والصدور إلى أن ينتهي انجيس ويكون النصيب الأوفـــر مـــن العـــصا للإماميين (طبعا) وعندما ينتهي انجـــيس وبالأحـــرى أنجيس من العد ويستوثق من عدهم ويتأكد من أن أحداً لم ينقص منهم ويتعاسه من يتأخر عن دخـــول الـــصف، فذلك جزاؤه خمسون جلدة بالسياط، أما الـــذي يتقدم بجسمه ويؤثر في استقامة الصف فلا ينبه إلا بالعـــصا تنـــزل عليه بقوة وبعد دور العد والعصا ودور السياط، أما الذي لابد واقع بواحد أو اثنين على الأقل يأتي دور الخطبة والموعظة الحسنة.

فيقدم رجلاً ويؤخر الأخرى كأنه عملاق من العمالقة، لأن كان طويل القائمة عريض الأكتاف، ثم يبتدى في الخطبة .. تلك الخطبة التي لم يتغير لفظها ومعناها طيلة المدة التي قضاها معنا في القيقب ذلك اللعين، وهي قرابة ثمانية أشهر.

الـخـطبـة

هل كلكم موجودين ...؟

وبعـــد أن يـــسمع كلمـــة (سى) نعم. مع سينيور طبعا، يقول:

- أيهـــا العمال أحبوا دولتكم اذكروا فضل العميم، وأطيعوا رؤســـاءكم واخضعوا لهم خضوع العبيد لسادتها، اعملوا بجـــد ونشاط ولا تتوانوا ولا تتخلفوا عن العمل، وإلا فإن الـــسياط تلهب جلودكم والحبال تخر رقابكم، يا أعفن خلق الله، أيها الحيوان الناطق .. أيتها الكلاب الضالة . منتهى العفونة والقذارة .. يا أرد ما خلق الله، يا من يرأفون على رجـــال العصابات ويدسون لهم الخبز والسكر والشاي في التـــراب وتحـــت الحجـــارة، يا من يكنون في صدورهم العداوة والكراهية والبغضاء لدولتهم الرحيمة إيطاليا.

وعندما ينتهي من هذا الكلام المفتت للأكباد، يقول:

– (فابيني) – أكويس؟

وعندما يردد العمال كلمة (فابيني) بلهجة ملؤها الحزن والخنوع والذلة، يقول:

– لا .. لا أريـــدها ككلمـــة برن معها ال؟ كما يرن صوت المصلين في الكنيسة .. هيا .. هيا .. تمرنوا جميعاً.

عند ذلك يقول الجميع (خوفاً من السوط):

– فابيني .

وفي بعض الأحيان تمتد الخطبة إلى أبعد من هذا الكلام.

إلـــى مـــا هو أشد وأقسى وأشنع، فيستمر بذاءته إلى أن يفـــرغ ما عنده من كلام فاحش يترفع قلمي على أن يدنس بهذه الصحيفة، وعندما ينتهي من صبِ لعنائه وشتمائمه التي يصبها علينا كشابيب المطر يقول:

– ادخلوا .. ادخلوا .. إلى حظائركم أيتها الحيوانات الضالة وإلا فإني إذا أمسكت أحدكم خارج حضيرته فإني سأمزقه إربا؟

وفي بعض الأحيان يقول:

- إنـــي أعرف بأن يأتي اليوم الذي أفارقكم فيه، إما إلى أحد المدن، أو إلى مركز آخر، غير أني لن أفارقكم حتى أكل من لحمكم وأشرب من دمائكم يا ذرية عمر المختار.

ويـــا ليتنا نسمع إلى هذه الخطبة وتنتهي هذا الترنيم وتلك الألفـــاظ الجارحـــة والتهديد والوعيد، ولكنها لا تمضي ليلة من الليالي دون أن يطرح شخص أو شخصان للسياط، وكان جزاء أقل هفوة خمسين جلدة إلى مائتي جلدة بالسياط.

وإليك أيها القارئ الكريم بعض هذه الهفوات لتكون على علم بها وتحكم بنفسك على ظلم ذلك الكرابيناري، ولكن قبل أن تـــسمعها أدعـــوك لأن تصلي وتشفق معي من أجل تلك الحفنة القليلة من العمال الذي ذاقوا صنوف العذاب والاضطهاد على يد ذلـــك المتكبر الجبار أضعاف ما لاقى غيرهم من العمال الذين وقعوا تحت نفوذ بقية رجال الكرابينارى الملاعين.

فقـــد كان يعاملنا معاملة الأشرار المجرمين دون أي ذنب جنيـــناه، ولكن الحكم الإيطالي الذي يقر هذه الأعمال الوحشية، ويطلق الحرية الكاملة لحكامه ورجاله المستبدين في إذلال نفس الوطني وقتل روحه المعنوية وشعوره بالكرامة.

كنت أتوضأ

ذات صباح خرج رجل يدعى عبدالسلام الحاسي، وكان رجلاً طيب القلب نقياً متديناً يؤدي الصلاة في أوقاتها ليأتي بالماء من العين التي لا تبعد عن باب القصر بعشرين من الأجل الوضوء لصلاة الصبح، وعندما رجع الرجل بالماء وجد انجيس واقفاً بالباب، فقال:

- أين كنت.

- كنت أتوضأ وآتي بالماء من العين؟

- كذاب . إنك كنت على موعد مع رجال العصابات.

- لا والله.

- إنك رجل مغالط قوي الغلط .. أتخفي عليّ وتكذب عليّ.

وأمر بجمع العمال، وجلد الرجل التقي خمسين جلدة بالسياط.

هل رأيت مثلي أعمال هذا الكرابيناري اللئيم.

هل رأيت مثل هذا الاستبدادي.

هـــل عقاب الرجل الطيب الذي ذهب ليأتي لماء الوضوء ليؤدي فريضة الله التي أوقاتها خمسون جلدة؟

ولكن الاستعمار ..

استعمار إيطاليا الغاشمة ورجالها الذين أطلقت لهم الحرية الكاملـــة فـــي تعذيب واضطهاد هذا الشعب الذي ترى في بقائه علـــى هذه الأرض الخصبة خطراً مزاحماً لأبنائها الذين تنوى جلـــبهم بقصد التخفيف عن إيطاليا المزدحمة بالسكان وملء هذه الأرض الطيـــبة واســـتغلال خيراتها الكثيرة والحط من كرامة ســـكانها الأصـــليين لـــيكونوا عبـــيداً أرقاء للسادة أبناء إيطاليا المستقلين..

إذن لـــيعذب أبـــناء هـــذا الوطن سواء اقترفوا ذنباً أم لم يقتـــرفوا لـــيمت من يموت غير ما سوف عليه ويحيى من حيا ولـــيكن الحـــي أسوأ حالاً من الميت .. حياته التشريد .. حياته الـــشدة والإرهـــاب .. حـــياته الضغط على الحرية الشخصية والعقائد الدينية .. حياته الذل والمسكنة والاستعباد .. حياة عهد لإقامـــتها وتوطـــيدها الرجال قساة أمثال انجيس اللئيم .. رجال بنتهم إيطاليا في جميع أنحاء الوطن المنكود وأن إقامة معتقلات

العقيلة والبريقة وموت المواطنين فيها بالجملة لدليل صادق على خطـــة الإبـــادة التـــي رسمها إيطاليا الغاشمة ليعيش أبناؤها في بحـــبوحة من العيش الرغيد ويعيش المواطنون على فتات ظئيل من خيرات بلادهم الغنية المغتصبة.

أليـــست تعالـــيم هـــذا الدين نابعة من خير رسالة أنزلتها الـــسماء على الأرض فأحيت مواتها وخلقت بها عزيزة كريمة لأتـــاوي فـــي أجورها إلا الصقور .. هذه الصقور التي وحدت شـــبه الجزيـــرة العـــربية وفـــتحت الشام والعراق وبلاد فارس وأفـــريقيا حتى دخلت فاسو مضت فاتحة حتى المحيط الأطلسي والأنـــدلس وأكثـــر أراضي فرنسا وموطنة سيشيليا أيها الغبي المغـــرور ودانت بها سلاطين ظالمة وعروش ضخمة واتسعت دائرة ملكها إلى ما لم تبلغ دولة الرومان؟

ثم هذا الدين الذي تعيبه يا سينيور بالجنة وتعيب به الذين يذكـــرون الله ســـجوداً وقعوداً متطيبين أليس وقوفهم وطهارتهم وخـــشوعهم أفـــضل من وقوفك بنعالك ونجاستك وقذارتك أمام أيقونة العذراء؟

ألـــيس هذا الدين الذي تعيبه هو الدين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لا أريـــد أن أخوض معك في هذا الدين لأنه بحث فلسفي تـــشريعي محضى، وشخصي الضعيف ولا يحسن الخوض فيه ولولا وقحاتك مع رجل معل لكنت أمر كما مررت من قبل على أعمالك الوحشية وتهجماتي لسانك النتن مر الكلام.

حادث مؤلم

وإن كنت أنسى ويا أكثر ما نسيت من أعمال انجيس الوحشية التي تضيق بها المجلدات فلا أنسى ولن أنسى هذا الحادث المؤلم المحزن وذلك المنظر الرهيب ولو عشت ألف سنة .. بينما كان العمال يخرجون من باب القصر كعادتهم كل صباح إلى أعمالهم، وكان انجيس واقفاً بالباب على عادته ينظر إلى مرور أولئك التعساء الذين أوقعهم سوء حظهم في حيازته وتحت رحمته، إذا رفع رجل يدعى عوض الجاضره من وجهه فالتفت عيناه بعين انجيس عن غير قصد، فانقض عليه انقضاض الأسد على فريسته وأخذ يضربه بعصا كانت بيده إلى أن تكسرت ثم أخذ يركله برجله إلى أن كلَّ وملَّ ثم طرحه على الأرض وأخذ يدوسه بنعله إلى أن غشى على الرجل المسكين وغاب عن الوجود ساعة من الزمن، ثم انتفض انتفاض الطائر المذبوح ودار بعينه يمنه ويسره كأنما يفتش عن شيء أضاعه، فوقع نظره على انجيس الذي ما زال واقفاً فوقه ينظر إليه نظرة السفاح إلى جريمته، فأخذ الرجل ينظر إليه بعينين أشبه بعيني

الـــشاه إذا رأت سكين الجزار وأدركت أن حينها قد حان فركله انجيس برجله وقال:

- اذهـــب .. اذهـــب إلى عملك وإلا فسأقضي عليك في هذه الساعة .. اذهب ولا تتعود أن تنظر إلى شررا بعد اليوم ..

- اذهب .... أقول لك اذهب ... قم فأخذ الرجل المنكود يّهم بالـــنهوض وهو يتأوه من الألم، وأخيراً وقف على قدميه ببطء وحاول أن يمشي لكنه ترنح إلى الأمام.

الرجل الأعور

في إحدى الأمسيات التي اعتاد فيها ذلك الطاغية الجبار أن يقف أمام ذلك الصف الطويل من أولئك العمال المنكودين الذي أوقعهم سوء طالعهم في ذلك المركز المرير .. مركز الظلم والاضطهاد .. مركز البؤس والشقاء.

اعتاد ذلك الظالم أن يقف وقفة القائد المنصر أمام أسراره. وبعد أن عد العمال وأحصى عددهم سأل الزابطيه قائلاً:

- فيه شخص غائب؟

- نعم سينيور .. فيه شخص مريض من عينه.

- لازم من حضوره .. آتنى به عاجلاً ولو كان مشرفاً على الموت.

- حاضر سينيور.

وذهب الزبطية وأتى بالمريض . فقال له أنجيس:

- أريني عينيك؟

فأزل الرجل المنديل من على عينيه. فقهقة انجيس ضاحكا ثم قال:

- اعور .. اعور .. إنك أعور وليس بك وجع. ولكني سأعطيك دواء لكي لا تغيب مرة أخرى عن الصف.

ثم التفت نحو العمال وقال:

- هل تدرون هذا الدواء؟

ولما لم يتكلم أحد، قال:

- إن هذا الدواء يتألف من مائة جلدة بالسياط، وهو دواء ناجح مجرب، وسترون أنه لن يغيب عن الحضور بعد هذه المرة.

ثم أمر الرجل المسكين أن ينبطح على بطنه، وأن يجلد مائة جلدة ...

إن الرجل كان مريضاً بعينه، غير أن السينيور لم يعرف أو بكلمة أصح لا يريد أن يعرف أن العين العور تمرض كما تمرض العين السليمة.

وإنمـــا الـــذي يعرفه ويتقن معرفته .. القسوة والشدة مع هـــؤلاء المـــساكين لإضـــعاف نخوتهم وإيلام نفوسهم وإهانتهم وإذلالهـــم حتـــى يـــتعودوا الخضوع والذل والامتثال لأوامره وطاعـــته وعدم الغياب عن (الريقه) مهما كان حال الشخص مريضاً أم سليماً.

وكان عدو الله يبحث كل مساء عن أقل هفوة يلصقها بأحد العمـــال، يتسلى بعذابه وآلامه، وقد أصبح له ذلك عادة وروتين يتمـــشى علـــيه جميع أيامه ولياليه لأن قد ركبت فيه غريزة لذة نفـــسية تنفـــتح وتنمو وتزدهر بتعذيب الآخرين، فهو لذلك يجد راحـــة ومسرة لهذه الغريزة التي تتغذى وتنشرح لمرارة هؤلاء المناكـــيد وهـــم يصرخون من ألم السياط أو يئنون من الفاضه الجارحة كما ينشرح الموسيقار بأعذب ألحانه.

إلــى الـجـنــة

بيــنما كـــان رجلاً يدعى الحاج حميدة تربح قائم يصلى صلاة المغرب إذا باللعين انجيس يقف بجانبه ينظر إليه إلى أن سجد، ثم ركب على ظهره وقال:

ـ سر بي أيها الحمار إلى الجنة التي تتعبد من أجلها.

مـــاذا كـــان يعني هذا الاستعماري في قوله: سر بي أيها الحمـــار إلى الجنة التي تتعبد من أجلها .. أما يكفيك أيها اللعين مـــا تصبه من كلامك وشتائمك على رؤوس هؤلاء المناكيد أما يكفـــيك كـــل ذلك على التعرض للمصلين والجنة والصلاة حتى تتخذ منهم سبيلاً إلى السخرية من الدين الحنيف؟

أهـــذا هـــو الأدب الرفيع الذي لقنته لك حكومتك لتعلمه للعمال والمصلين؟ أهذا هو أدب الكنيسة الرومانية أم هذه تعاليم (الفاتيكان)؟

لا .. لا أننا نتحمل كل شيء من الشتم والضرب والسب

ما دمنا تحت طاعتك نتحكم فينا تحكم السادة للعبيد أما الاستهانة بالدين والحط من كرامة المصلين فهذا لا نرضى به ولا نسمح بــه لأحد مهما كان نوعه ومهما كانت سيطرته وجبروته .. أن عملــك هــذا أيها السينيور المتغطرس يذكرنا بأعمال أمية ابن خلف الوحشية مع بلال.

نعم .. يذكرنا بأعمال أُميَّة وماصب من صنوف العذاب علـــى بـــلال بغـــية رجـــوعه عن الصلاة والذين للذين ذاق حلاوتهما وعرف منهجهما أتريد أنت .. أتريد أنت الآخر أن تنتهك حرمة هذا الدين الذي تتشبث به ولا نرضى عنه بديلاً مهمـــا أغرت وأجبرت حكومتك، ومهما ألحقت أنت بنا الظلم واضطهاد .. نعم .. فلا سيف الحكومة المصلت على الرقاب ولا ســـوطك الـــنازل على لا بد أن بقادرين على اضماء هذه العقيدة الدينية فالعقائد لا تعذب ولا تجلد لأن مسكنها القلب .. والقلب حر طليق لا يردعه عذاب الأجسام ولا حكم الحاكمين أتـــريد أن تنـــتهك حـــرمة هذا الدين القويم وقد أقرته جميع الشرائع السماوية.

لا أريد أن أخوض معك في هذا الدين الحنيف الذي أتت به كل الجهل، ولكن:

هـــل العبادة مني أو منك أو من صاحب أي مذهب آخر يستهزأ بها.

هـــل الركوع مني أو منك أو من صاحب أي مذهب آخر يقابل بالزاوية يا وقح.

أليست الصلاة تكفير للذنوب وطاعة للرب ننشد من أدائها في أوقاتها الغرض الأسمى من طاعة الرب يار منفوخ؟

أليس الدين الإسلامي يا جناب السينيور دين الله تمخضت عـــن تعالـــيمه حضارة ولا رأفة والظلال يانعة الأفنان خصبة المـــرافع أرســـت قواعد العدل في الدنيا وتثبت دعائم الحق في الوجـــود ونشرت ألوية الفضيلة في كل حي، فإذا بنودها خفاقة في أصقاع الأرض.

ألـــيس الـــدين الإســـلامي الذي تهزأ به وبجنته هو الذي مساوي بين الطبقات، فلا الغنى يسيطر بماله، ولا القوى الغاشم بقوته يعلو، بل الناس في الحياة سواء بينهم إلا بالتقوى.

بــول بـعــيد

بعــد تــناول وجــبة العشاء، في إحدى ليالي الصيف المنعــشة الجمــيلة، وبعــد أن نام أكثرهم ينامون في العراء هــروباً مــن كثرة البراغيث داخل (البراريك) لأجل التكتع بنسيم الليل البليل.

كــنا قرابة العشرين رجلاً ينام بعضنا بجانب البعض في العراء، فلم نشعر إلا وشخص واقف يبول بجانبا. فقال رجل من النيام يدعى الشريف المسماري، وكان وجهه مغطى:

ـ أنت يا هذا، بل بعيد عنا.

وكــان الشريف في آخر النيام، وكان يظن أن الذي يبول بجانــبه مــن العمال. فلما سمعه انجيس وكان يعرف قليلاً من العربية أجابه قائلاً باللغة الإيطالية:

ـ إذا لم يعجبك بولي فالأحسن أن أبول عليك.

ثم أتم بوله على الرجل، وقال:

ـ أضنك ممنوناً بهذا البول، لأن الجو حار جداً، وبهذا البول تكون طرياً.

وسمع أكثرنا ما دار بين اللعين والشريف ولكننا كنا كالأموات لأن اللعين كثيراً ما يمر أثناء طوافة في الليل على جماعة نيام مثلنا فيعجبه تمددهم على الأرض، فيبجأ من أولهم إلى آخرهم جلدة جلدة بالسياط منحة بهم ويقول:

ـ الآن قد أزلت عنكم الغبار والبراغيث، فناموا هنيئاً إلى الصباح.

الـمـرابـط الـكـبـيـر

بينما كان أحد العمال سائراً وسط باحة القصر، وكان ذلك العامـــل يدعـــى القرباعي، إذا هجم عليه اللعين ورأى أن يجلده بالسوط لا لذنب جناه ولكن كانت هذه هي هواية اللعين المحببة إليه يجلد من يمر بجانبه ويقهقه ضاحكاً عندما يتلوى أو يصرخ المجلود من شدة الألم.

وعندما رأى الرجل ذلك الوحش منقضاً عليه السوط بيده أدرك أن جالـــده لا محالـــة لأنه ألف هذا المنظر الرهيب عدة مرات، فالتجأ إلى (براكة) كانت بالقرب منه.

وأراد أنجيس أن يجلده قبل دخوله البراكة فرفع يده ونزل علـــيه بالـــسوط، ولكـــن بـــدل أن يصيب الرجل أصاب حرف (زيـــنقو البراكة) فانقطع السوط قطعتين من شدة ساعة اللعين وحـــده شفرة (الزينقو) فضحك بعض العمال الموجودين لأنـهم من الذين ينطبق عليهم المثل العامى (خشم في الخرى ويذن) ومما زاد الطين بلة قول أحدهم:

ـ هذا (نرابوتو) مرابط.

فكانــت هــذه الكلمــة بمثابة هبوب ريح على أتون جمر غــيظه المــتعد عند ذلك زمجر اللعين زمجرة الأشد الحردان، وقال:

ـ سوف ترى المرابط.

مخاطــبًا ذلك العامل، ودخل على الرجل المسكين وجذبه بــيده كمــا يجذب الأسد الجدى الهزيل وجره إلى وسط ساحة القــصر والرجل يرتعد كالسعفة في الريح العاصف، لأنه عرف أن الحكم الرهيب واقع لا ريب فيه.

إلى الخلف كما يترنح السكران الثمل الذي يجر نفسه جرا وهو يتعثر في خطاه ويئن من وجعه.

وعــندئذٍ أمــر ذلك الظالم اللعين إلى أسراره المنكودين بمتابعة السير إلى مكان أعمالهم بعد أن مثل برفيقهم ذلك التمثيل الشنيع وأراهم أعمال الهمجية والعنف.

كــان لذلك الرجل المعتدى عليه ثلاثة أخوة، شاهدوا ذلك الاعــتداء الشنيع، فلم يقدر منهم أحد على نصرة أخيه المظلوم خوفاً من ذلك الكرابينارى الجبار أو بكلمة أصح خوفاً من حكم

الدولة الظالم المستبد وسيفها المصلت على الرقابِ، ولم يكن لهم معين ولا نصير إلا الدموع فأرسلوها مراراً ولم يكن في خفية وحذر عن نظر اللعين، لأنهم لا يستطيعون أن يجهروا بهذه الدموع، وكيف يستطيعون أن يجهروا بها في زمن حرمت فيه العطف والرحمة وصلة الأرحام.

أما بقية العمال فأخذوا يتحاكون في أنين متقطع الأنفاس، ويرددون عبارات الحزن والأسى، ويتألمون من ذلك المنظر الرهيب المحزن، وتلك الحياة المملوءة بالمتاعب والآلام والتعذيب والاضطهاد ....

فتألموا لمنظر حقا لمنظر أخيهم في الصحبة والعروبة والدين وهو يداس تحت الأقدام كما تداس الحشرة الضئيلة ....

فتألموا من تلك الأعمال الهمجية ولكنهم جمهور مغلوب على أمره، جمهور من الرقيق المستبعد لا حول لهم ولا قوة ولاغاثة المكروب، لأن قوتهم وشجاعتهم وتخونهم قد سحقها الهول والفزع وحطمها إرهاب الكربيناري وسلطة الدولة الظالمة التي لم يترك نوعاً من الإذلال والانتقام إلا استعملته لطمس النجدة والنخوة في قلوب الجماعة والأفراد.

فأرادوا لها حسرات وعبرات وزفرات إلى أن وصلوا إلى مكـــان العمل وهم يئنون من ذلك الحادث المؤلم أكثر من أنينهم من وطأة الاستعمار الذي جعلهم فريسة ظلم ذلك الجلاد الذي لا يبغـــى مـــن وراء عمله هذا غير التشفى والانتقام وتنفيذ سياسة الإرهاب والإذلال والتعذيب.

شكوى فاشلة

عندما اشتد بنا الضيق والهم وتراكمت علينا المصائب والآلام وانقطع بنا حبل الاتصال بأهلنا وذوينا، فكر بعض منا أن نتقدم بعريضة شكوى بحالنا ومال إليه أمرنا من بؤس والعذاب وضالة ما نتقاضه من أجر زهيد عن ذلك العمل المضنى الشاق.

اجتمعنا أربعة سرا خوفا من أن يصل ما فكرنا فيه إلى أن ذلك الكرابيناري اللعين وكتبنا عريضة في مصرف شحات الذي كان القيقب تابعاً في ذلك الوقت، ضمناها كل أعمال انجيس الوحشية، تصرفات الشركة المستبدة وعدم وفائها لنا بأجره شهر من العمل، ووقعنا العريضة باسم (عمال القيقب) وأرسلناها سرًّا مع سائق سيارة عربى كان يأتي القيقب بين الحين والحين حاملاً المواد الغذائية إلى صاحب دكان إيطالي يدعى (سيجرى بولينو) وأمرناه أن يضعها في صندوق البريد بشحات وأوصيناه يبوح بها لأحد من الناس.

لــم يمــض أسبوع من الزمن على تاريخ إرسالها حتى قــدمت علينا من ناحية سيارة صغيرة (فينورا) تتبعها أخرى كبيــرة محملــة بالجنود الكربيناري المسلحين، وأخذ رجل في الــسيارة الأولى يشير إلى العمال ويأمرهم بالقدوم إلى القصر. ترك العمال العمل وأخذوا في الجري وراء السيارة وتكون من ذلك العدد الهائل من العمال شبه استقبال الزعيم كبير وبالأحرى شــبه مظاهرة كبيرة صامتة. غير أننا لم نكن نعرف مظاهرات تحــت الحكم الإيطالي الصارم المستبد الذي يحرم المظاهرات والــتجمعات من الرعايا المحكومين سار ذلك السيل العرم من العمال إلى أن دخلوا ساحة القصر وما إن استقر بنا المقام حتى أمــرنا اللعــين انجيس (بالريفة) وما انتهينا حتى خرج علينا متــصرف شحات تحيط بنا ثلة من حرس كربيناري المسلحين بالبنادق والمسدسات، وما أن دنا بنا حتى أمرنا له بالتحية، وبعد أن أدينا له التحية قال:

- لقد أتينا من شحات بناء على شكوى قادمة من طرفكم .. وأريد أن أتكلم، وأريد أن تسمعوا بأذانكم وتغلقوا أفواهكم.

أتــيت لأنظر في مسألتين وهما أصل الشكوى التي أتيت من أجلها، ولكني وجدت، أما في شكوى ثالثة وهي: عندما أتيت

بالسيارة وأمرتكم بالمجيء ورائي رأيت أحد العمال يجري ولوح لي بقطعة الخبز التي بيده .. وعند وصولي إلى القصر مباشرة ذهبت إلى الدكان ونظرت إلى الخبز فإذا به خبز نقي لا شائبة فيه .. خبز نظيف ولكنكم لا تستحقون لأنكم لستم أهلا للأكل من مثله .. إنكم تستحقون كل خبز الشعير فقط .. بل تستحقون أكل حب الشعير كما تأكله البغال والحمير ..

أما المسألتان اللتان قدمت من أجلهما .. الأولى تتعلق بالشركة وهي: أنكم ضالة أجر اليومية وعدم خلاصكم في أجرة من شهرين من العمل، وقد سألت الشركة عن أدنى الأجور وأقصاها فإذا بكم تأخذون أجور كبيرة لا تستحقونها البتة مهما عملتم من عمل شاق.

ذلك (إكراما لكم) قد أقرت الشركة أن تخفض فرنكين كم أجر كل عامل في اليوم.

الذي لا يعجبه هذا الأمر فالحكومة مستعدة أن تحمله إلى معتقلات العقيلة حيث العمل الكثير ... لكن بدون أجرة.

أمر اللعين أحد الزبطية أن يأتيه بسوط جديد من المكتب، والسياط متوفرة لديه ولأمثاله من الكربيناري والحكام لأن

حكـــومة الظلم ترسلها إلى جميع المراكز ترسل القرطاسية التي لا غنى عنها.

وأمـــر العمال لأن ذلك اليوم كان من أيام الآحاد والعمال معطلـــون عن العمل، وعندما انتظم الجمع في صفوفه الطويل، وبعد أن كبس قبعته على جبهته، وكان ذلك علامة غضبه وكلنا يعرف ذلك، قال:

- لقــد جلدت هذا المرابط بالسوط فانقطع . والآن أريد أن أجلـــده مائة جلدة بهذا السوط الجديد جزاء له على التجائه بالبراكة أو تسببه في قطع السوط.

ثم أمر الرجل المسكين أن ينبطح على الأرض، وهزّ في يده السوط الجديد حتى صار له صفير صغير كصفير العاصفة ثم قال:

- إذا كان مرابط حقاً فلينقطع السوط.

ثـــم تنـــزل على ظهر الرجل إلى انتهى من المائة جلدة، ثم قهقه ضاحكاً، وقال:

- سامحني المرابط الكبير ...

هــذه مــن بعض أعمال انجيس الوحشية التي لو أردت جـــصرها لا احتجت إلى مجلدات ضخمة، ولكني أتيت باليسير مـــنها وبأشنع فالحق أولئك العمال المساكين الذين عانوا أصعب المـــشاق وأمر ألوان العذاب من ذلك الجلاد اللئيم الذي حرمهن حتـــى مـــن إرسال الرسائل إلى أهلهم وذويهم، كما حرم عليهم ترك العمل والسفر إلى مكان آخر أقل سلطة وجحيما. فهم على يديـــه قـــد انـــتهوا إلـــى الـــدرك الأسفل من العبودية والعذاب والحـــرمان، والـــشقاء، وأصـــبحوا من قسوة الحكم عبيداً إذلا يخضعون له خضوع العبد لمولاه.

أما مطالبتكم بأجرة الشهر المتبقى لدى الشركة فقد تحدثت معهـــا فـــي شأن فوجدت لها العذر حيث لم تصلها النقود بعد، وستـــصرف لكـــم عندما يأتيها المال الكافي. أما المسألة الثانية فهي تخص الحكومة وهي شكواكم من السينيور انجيس .. وإنكم لكاذبون فيما نسبتم إليه من قوة وفيما ادعيتم عليه بالباطل. وأن يجب أن تعرفوا جيداً أنكم في راغد عيش وراحة وهناء.

وأشـــكر الحكومة كثيراً على ما أنتم فيه من نعيم وراحة واحذروا أن تتقدموا مرة أخرى بشكوى مثل هذه الشكوى. وإلا نزلت عليكم السياط تلهب جلودكم والرصاص يخترق أجسامكم

والجبال تحز رقابكم على السلامة ثم توجه نحو سيارته وركبها عائداً من حيث أتى .. وأخذ العمال يتسألون فيما بينهم عن مقدم الـــشكوى التي أتى بسببها المتصرف، وعن الشخص الذي لوح لــــه بالخبز شاكياً. فقال أحد العمال، أنا: عندما أخذنا في الجري وراء ســيارته كانت بيدي كسرة من الخبز لعله رأها فظن أنني أشـــكو مـــن ردائة الخبز، ولكني لم ألوح بها إليه ولم أقصد أي شكوى من ناحيتها.

ورجع المتصرف بعد أن انتهى من خطبته التهديدية التي حـــذر فيها ونذر .. حذر فيها من القدوم على مثل هذا الطلب.. طلـــب الحقوق المغتصبة والشكوى من ظلم انجيس واضطهاده وعذابـــه .. وإنـــذار وخوف بقوة إيطاليا الغاشمة كل من تحدثه نفسه بالعصيان والخروج عن نظام الدولة المستبدة بالزج داخل المعـــتقلات، والعمـــل بالسخرة، والضرب بالسياط والرصاص، وبالموت على أعواد المشانق ..

أهذا هو الذي أعواء اندى قدمت من أجله باجناب المتصرف؟

أهـــذا هو الذي أتى بك من شحات إلى القيقب لتتنفس من كربة هؤلاء العمال المضطهدين الذين يظنون أنهم وجدت الحق والإنصاف والعدل في جنابك الرفيع؟

هل طلب الحق والشكوى من الظلم والاستبداد في نظرك طلــب باطل زائف، ومن أكبر الكبائر تقديمه إلى جنابك؟ .. أم الحــاكم حــر فيما يشاء ويختار في هذا الزمن الذي يسوده ظلم الغاصبين والمحتلين؟

أيــن هــذه الخطبة المستبدة الظالمة التي خوف فيها هذا الظالم بقوة إيطاليا الغاشمة والزج في المعتقلات وعمل السخرة والمــوت من الجوع والآلام من خطبة عمير بن سعد حين كان حاكماً على حمص قال:

- لازال الإســلام منــيعاً؟ مــا اشــتد السلطان، وليس شدة الــسلطان فمثلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل ..

أين هذا من ذاك؟

أين هذا الاستعماري الذي ينذر ويخوف بالسوط والسيف والشنق والضرب بالنار، وينفذ سياسة حكومة استعمارية تقصد مــن وراء تهديــدها وعــيدها، الاســتعباد والحــط من كرامة المواطنــين، ولا يهمها شكوى المتظلم وأين المتعذب، ولا إغاثة المكروبين؟

مـــن ذلـــك الرجل التقى الصالح عمير بن سعد حين كان والـــيا على حمص وارسل إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول:

- اقبل بما جبيت من فئ المسلمين.

وعـــندما قـــدم المديـــنة بدون فئ سأله عمر بن الخطاب عمله، قال:

- بعثني حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيـــتهم حتى إذا جمعوه قسمته على الفقراء، ولو نالك منه شيء لأتينك به.

قال عمر: فما جئتنا بشيء؟

قال عمير: لا.

قال عمر: جددوا العمير عهداً بالولاية.

قال عمير: لا عملت ولا لأحد بعدل والد ما سلمت بل لم أســـلم لقد قلت لنصراني (من الرعية) أي إخزال الله فهذا ما عرضني له يا عمر، وأن أشقى أيامي يوم خلقت معك يا عمر..

أين هذا الذي يرحم الفقراء من الرعية ويشفق عليهم شفقة

الــوالد الــبار بأبــنائه، وعددهم بأموال الدولة وفيئتها من الذي يسلب أموال الفقراء وما يملك الأغنياء ويقتطع من أجر العمال ما هم في أشد الحاجة إليه ..

أيــن هــذا الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ويخشى عقاب الله.

يشير للأرض بالنماء والاخضرار والحياة، ورعدة شئوم يحملـــه لمــن يخفق قلبه بالإيمان وينطق لسانه بالضاد وترتفع نفسه عن المكارة والدنايا الآثام.

قـــال بعــد أن عظم إيطاليا قوتها، وأساء بفضل حكامها وقادتها، وبين عزها وسيادتها:

أبـــشر وانقذ قبضت حكومتي على عمر المختار العاصي المتكبر ... لأنه لم يحنِ رأسه لحاكمهم يعبده، ودستورهم يقدسه وظلمهـــم يتجرعه، ولم يطلق لهم الحرية في سفك دمائنا وهتك أعراضنا وتحطيم كياننا وإبادة شعبنا ...

عاصــــي متكبر لأنه دافع عن وطنه وقوميته، ولم يستسلم لحمهم الرهيب واستعمارهم البغيض، ولم يذل ويستكين لحمايتهم ويرضى بما عاشرتهم فحاربهم محاربة الأبطال السنين الطوال

وأذاقهم الشدائد الأهوال عاصى متكبر لأنه بث في نفوس المواطنين العزة والشهامة وحارب روح الذلة والاستكانة حتى التف حوله الكثيرون واستمدوا من روحه الكبيرة ونفسه القوية دروس التضحية والفداء، الأمر الذي جعل إيطاليا تتكبد أكبر الخسائر في الأموال والعتاد والأرواح منذ وطئت أقدامها هذه الأرض إلى اليوم .

وبعد أن تكلم كثيراً في الموضوع كلاما يفتت الأكباد ويقطع الأمعاء ودوخ كثيراً من العمال قال.. لذلك جئت لأزف إليكم هذه البشرى العظيمة .. بشرى القبض على عمر المختار وشنقه كل واحد منكم بل كل واحد من العرب تحدثه نفسه بالعصيان والخيانة والتمرد على الحكومة كما فعل عمر المختار سيجد أمامه (الدقر) قصار البنادق وحبال المشانق.

وبعد انتهى رسول الشوم من كلامه، ورجع من حيث أتى وترك لنا ذكرى مؤلمة وخواطر مفجوعة مخزونة، وفرصة لن تمحى من القلوب والأكباد.

كان ذلك الجمع المحتشد من العمال ينظر ويسمع لما يفوه به المتصرف من الكلام وكأن على رؤوسهم الطير، فلا حركة ولا كلام كأنما أخذتهم جميعا سنة من النوم، فهم صامتون

مطـــرقون ولكـــنك إذا أمعـــنت النظر إليهم ترى منهم المكفهر والوجه العابس، ترى وجوها ملؤها الأسى والحزن والألم ترى شفاها صامتة صموت البركان قبل ثوارنه، تكاد تسمع الشهقات المكظومة التي تريد أن تخرج منها ..

كـــان انجـــيس أثـــناء كلام المتصرف المشئون يصوب نظـــراته الحـــادة إلى ذلك الجمع من العمال .. إلى تلك الوجوه المنكودة التي زادها ذلك النبأ المشئوم كآبة ووجوما .. إلى تلك الوجـــوه التي ارتسم عليها الحزن والألم لفقد بطلها ورافع راية فخرها ومجدها.

رجع العمال من ذلك الجمع المحزن المرير وهم يجرون أرجلهـــم جراً كأنما رجعوا من معركة دامية وقد خسروا قائدهم وكل ما يملكون من عتاد وعز وكرامة وقد غشيتهم سحابة كثيفة مـــن الحـــزن والألـــم دخلوا إلى أوكارهم والدموع تتساقط من أكثـــرهم أقـــسم بالله ولست بجانب أن أكثر العمال بات ساهراً واجمـــا لـــم يذق الطعام مما سمع ذلك النبأ المشئوم لقد قال أحد الرفاق:

- مـــن هذا اليوم هو أسود يوم في تاريخ استعبادنا الطويل عذابنا الشاق المرير، ولقد كان انجيس فيما مضى يتساهل

معكم خوفاً من أن تفروا إلى العصاة (كما كان يقول) أما اليوم وقد استشهد فسوف ترون أنواع العذاب.

أصحيح استشهد عمر ..؟

أصحيح مات عمر المختار الذي صمد لجحافل الإيطاليين أكثـــر من اثنين وعشرين سنة لم يتطرق الحوز فيها إلى نفسه رغم كثرة عدده وقوته ..؟

أصـــحيح مـــات البطل الذي زعزع سلطان إيطاليا وأقلق مضاجع المسئولين فيها ..؟

عمـــر الذي يحاربها في التلال ويقاومها مقاومة المؤمن الـــصابر فـــي الوديان، ويشن عليها حملاته بالبنادق وبالسلاح الأبـــيض علـــى هضبات الجبل الأخضر وديانه وسهوله ببسالة نـــادرة وببـــراعة عظيمة وبثبات عجيب وصبر على المكارة، فكانوا يعودون منهم منظرا دوماً ..

كان يمتص جواده ويمتطى مع جواده عزيمة لا تصرف الانهيار وقوة من الإيمان لا تعرف التخاذل ونفساً عزيزة كريمة عالـــية تأنـــف الـــضيم ولا ترضى الهوان ولا تطأطئ جبينها الغاضـــب أو جبينها الغاصب أو محتل أثم، وإنما سعيها الجهاد

في سبيل الله والذوذ عن الحرية والصبر عند اللقاء والاستمرار علـــى التــضحية في تحرير وطن عربي مسلن من نير الطغاة، ونـــشدانها إسلاماً عزيزاً يصان في دياره ويكرم فيها ولا يهان، ويحـــيا ويرتفع مجده إلى السماء، ولا يهبط إلى الوحل، وغايتها أن الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس ...

هـــل مـــات الرجل العظيم الذي اجتمعت به قادة إيطاليا العسكريين والسياسيين ولم ينخدع بوعودهم الخلابة التي حاولوا إغراءه بها أثناء مفاوضاتهم العديدة معه ...

طلـــبوا منه كف القتال وأن يعطوه ما يبقى من جاه ومال فلـــم يرض باستغلال الوطن بديلاً .. أغروه بالمال فبصق عليه وأغـــروه بالجاه والسلطان فداسهما معاً وتوسلوا إليه بكل شيء فمـــا أفلحوا، هددوه ووعدوه، فلم يثنه الوعيد والتهديد بل مضى يجاهد أناء الليل وأطراف النهار جهاداً مريراً أقضى مضاجعهم وحيـــر قادتهم جهاداً لا يعرف الكلل ولا يبغى المال والسلطان ولا حـــاد مـــن معركته من أجل الدفاع عن الوطن ولم يثن عن عـــزيمته يوماً من الأيام، ولم يفكر في خيانة المبدأ الذي حارب من أجله السنين الطوال ...

استـــشهد عمر، وارتفعت روحه الخالدة إلى أعلى عليين

عند عزيز مقتدر تنبؤه انهارات ما عليها من واجب نحو الوطن المقـــدس وأنها أبلت في الكفاح المرير والجهاد المتواصل أعظم بـــلاء ... وحسبه أن ذكراه ستظل لحنا جميل رائعاً قوياً في فم الدهـــر، وفكـــرة ومبدأ وعقيدة في قلوب الأحياء، ومدرسة تلقن طلابهـــا مـــن فتيان العرب دروس الوطنية والحرية والجهاد .. مـــضي وتـــوارى حامى الدمار وراعى السلطان ومؤرق ليالى الطلـــيان .. مضى وسنحاول إيطاليا من جديد قتل العزل وهتك الأعراض وفعل السوء والدمار والإبادة والفناء ..

اللهـــم يـــارب أعن أحفاد هذا البطل الشهيد على متابعة القـــتال وإبادة الاستعمار وأمانة المستعمرين، فإنهم يالله العالمين يـــنمو أطفالنا ورملوا نساءنا واستحلوا حرماتنا قوميتنا ويبغون محو إسلامنا وطمس تاريخنا المجيد ...

اللهـــم يارب أخلق من عمر خلفا صالحا يسعى في قومية عـــربية تحريرية شاملة نشيدها دائماً الحق والخير والحرية لهذا الوطن الذي عان كثيراً من الظلم والذل والسيطرة والاستعباد ..

اللهـــم يـــارب أمطر شابيب الرضوان والرحمة على قبر عمـــر الذي لعن أبناء هذا الوطن دروس التضحية والكفاح من أجل الحرية والأوطان ..

ولك يا عمر من ربك مرة أخرى كذلك رحمة ورضوان وسعادة أبدية تنعم بها في أخراك التي أفنيت من أجلها شبابك وشبيك لم تطلب مالا ولا جاها وإنما ننشدانك رضا الله عنك والدخول في جملة الذين يقول في حقهم: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) ﴾.

وسلام عليك يا عمر في الأوليين وسلام عليك في الآخرين وسلام عليك يوم تبعث يوم الدين.

لـيـلـة داميـة

قـبل أن أنتهي بك أيها القارئ الكريم من أعمال انجيس الوحـشية، أحدثك عن ليلة امتازت عن بقية الليالي العديدة التي كانـت تحـدث بين الحين والحين والتي كنا ننسى بمثلها الأمن وأحزاننا ونتنفس من كرباتنا وأشجاننا فقد كان اللعين يرتعد منها وفي مثلها خوفاً ورعباً ولعلك تسأل لِمَ لَمْ أحدثك عن هده الليالي العديـدة وعـن الهجمات الكثيرة التي قام بها المجاهدون على قصر القيقب .. أقول.

إن هذا الكتاب قصد به بيان بعض أعمال إيطاليا الوحشية ومـا لحق عمال القيقب من ظلم وعذاب وهول واضطهاد دون أن أخلط فيه بين صحائف المجاهدين لبيضاء وصحائف انجيس وحكومته السوداء ..

فـي ذات لـيلة من ليالي الصيف المقمرة الجميلة، وكان أكثر العمال ينامون خارج (البراريك) طلبا للنسيم وفراراً من كثـرة البـراغيث، إذا بطلقات نارية تطلق على جنود الأحباش

بالمــثل وتزايد تبادل إطلاق النيران بين الفريقين وخفف رجال الكــرابيناري إلى نجدة الأحباش الذين يتكون منهم حرس وقدم علينا انجيس مهر ولا وأخذ يلهب أجسام العمال بسوطه الطويل (أسداً على وفي الحروب نعامة). يصول ويجول ويشتم ويلعن في العرب وأصل العرب وهو في حالة ذعر وخوف عظيمين، وأمرنا بالدخول داخل البراريك، وما أن دخلناها حتى بادر إلى التليفون وكانت بالقرب منا، وأخذ يصرخ ويستنجد طالباً العون تــارة مــن لملوده وتارة من ترت ولكن ليس من مجيب، وأخذ يريد في الصراخ في المسرة كلما زاد إطلاق النار.

انتهــى إطلاق النيران بطلوع الصبح ورجع الأحباش من مراكــزهم يحملــون أحد الجنود وقد فارق الحياة ويجرون آخر وقــد كــسرت يده ومنع العمال من الخروج إلى أعمالهم حتى يخرج الجنود الشجعان ويفتشون على (الفلاقة) المجاهدين في ضوء القمر.

ووقــف الفارس انجيس أمام الباب وهو يكاد ينشق غيضا ويبــرق ويرعد ورجع الجنود بعد مدة لأنهم لم يعثروا على أحد ولكــنهم عثروا على أربعة أعمدة من أعمدة التليفون قد التهمتها النيران وأسلاكاً مقطعة.

سمح لنا بالخروج بعد منتصف النهار وبعد موارات جثة القتـيل فـي التراب وما أن بلغنا أماكن العمل حتى وجدنا أيدي الفـؤس (والـبالات) كوما من الرماد وبداخله الحديد الذي لم تستطع النيران التهامه.

وداع العملاق

مضى ذلك اللعين (انجيس) في تهجماته السافرة القذرة التي تتنافى مع أبسط قواعد الأدب، ومضى كذلك في أعماله الهمجية يكيل فنونا وألوانا من الشتائم، ويجلد نفوساً عربية مسلمة ساقها الحظ العاثر أن تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه وتخضع لحكمه وجبروته اللذين لا يخشى معهما عقاباً ولا تأنيباً.

وكيف يخشى العقاب والتأنيب وحكومته إيطاليا الطاغية البربرية تجبر الألوف المؤلفة من أبناء هذا الوطن إلى معتقلات العقيلة والبريقة وتدفع بهم إلى هذه المعتقلات في خسة وغدر وخيانة وقهر، فيلقون صنوفاً من الاضطهاد والتعسف بغية إبادة هذا الجنس الذي أوقعه سوء الحظ والدسائس الاستعمار تحت رحمتها وسيطرتها ... إذن ليبيا بالحديد والنار، وليبيا بالجوع والعطش، وليبيا بالكيد والخداع والتظليل، وليبيا في الأعمال القاسية وعلى أيدي جنود الكرابيناري الطغاة ...

ويحاصر ويسجن ويعذب حتى يخضع ويصبح مطية

ذلولاً وعاملاً تابعاً تحت ضغط الفقر والحاجة بالجر الزهيد كما تساق الثيران الغبية، وليعامل معاملة أشد وأنكى من معاملة المجرمين الأشرار، وليعهد بتنفيذ خطة الظلم والاستبداد والانتقام إلى رجال قساة القلب غلاظ الأكباء، يخوفونهم ويرهبونهم ويملوءهم روعاً وذلا وخوفاً ...

فكانوا يسوقون العمال كما يسوق الجزار الشياه ولكن الأشياء تساق إلى حيث تريحها السكين، أما العمال فسايسقون إلى حيث ينتظرهم العذاب الأليم الذي لا نهاية له ... ويسوقونهم في خساسة ووقاحة ولؤم حتى إذا انتهى بهم المطاف إلى مركز من مراكز العمل الشاق إلى شركة مستبدة ذات طمع وجشع واضطهاد وإلى كرابيناري لئيم الطبع كأنجيس الغبي الذي كان ينتصب أمامنا كالعملاق يلقى على أسماعنا بذاءته المعتادة ويلقيها هذا الغبي وأني لأسرف أن أكرر كلمة الغبي تكريماً له.

فقد كان كل مساء ينهال علينا بالسب والشتم وكنت لا ترى في عيون الحاضرين ولا تسمع على ألسنتهم إلا إمارات الحزن وعبارات الأسى، على ظلم ذلك الخطيب اللئيم .. وكنا لا نملك نفوسنا من اللوعة وقلوبنا من الأسف .. وكنا نكثر من الابتهال إلى الله ينزع هذا الظلم من هذه الأرض

الطيـــبة التي أحالتها إيطاليا الغاشمة إلى مرافع ظلم يجد فيها الظالمـــون أمـــثال أنجيس تنويراً لإدهانهم وإشباعاً لغرائزهم الإجرامية، وتنفيذاً لخطة الإذلال أو بكلمة أوضح خطة السادة والعبيد التي رسمتها الدولة الغاشمة وأملتها على حكامها الكبار والـــصغار فأخذوا ينفذونها دون حياء أو خجل، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك ونصبوا على هذا الشعب صنوفاً من القتل وألواناً مـــن العـــذاب. لأن هـــذا التفنن في العذاب يرضى الحكومة الدكـــتاتورية ويجعلها تعذيب واضطهاد لهذا الشعب الذي قاوم وتحمـــل كـــل المتاعب والآلام وعاش بالرغم من كثرة موته داخـــل السجون والمعتقلات وعلى أعواد المشانق وأمام أفواه المدافع الرشاشة وفي الأعمال الشاقة.

هـــي تـــريده أن يباء، وهو يعلو في إباء ويرتفع في شمم ويتماسك أمام هذه المحن السوداء كالبنيان المرصوص لا ينهار قـــط ولا يـــتهاوى أبداً. هي تريده أن يبيد ويفنى، وهو يريد أن يحـــيا ويبقـــى إلـــى يوم الخلاص .. إلى الذي تطلع فيه شمس الحرية وسنقشع فيه ظلام الظلم والاستعباد البغيض وينال حريته واســـتقلاله ويـــسير جنباً إلى جنب في ركب الشعوب المتحررة الطليقة ...

وفـــي آخـــر نوفمبر عام 1931 انزاح ذلك الكابوس الذي كان يخيم على صدورنا بنقل انجيس إلى (حصن آخر) مركز آخـــر مـــن مراكز الجبل الأخضر كان أهله (أي العمال) في حاجـــة إلـــى تربية على يد المربي الكبير الذي تثق به الحكومة وبأفعاله وأعماله الانتقامية .. هذا المربي الورع بين اليد رفيق القلب عذب اللسان .. في حاجة انجيس يؤدب هذه الفئة العاصية تم العمال بما اعتاد أن يؤدبنا من جميل الأحاديث وكريم الصائح وحسن التعبير.

في حاجة إلى انجيس يلقن هذه الحفنة من العرب المناكيد دروساً في فنون السب والشتم والاضطهاد وطاعة الرؤوساء من الإيطاليين الأدنياء ...

لـــيفعل هـــؤلاء مـــا يشاؤوا فإنا صابرون ليوم الخلاص المـــرتقب وسيستيقظ هذا الشعب من رقاده، وسينفض عنه غبار ذله واستعباده، ويسير بخطوات ثابتة نحو أهدافه العادلة، لا يخيفه ظلـــم الظالمـــين ولا اضـــطهاد الحاكمين، وسينتصر في النهاية، وستطهر الأرض من جور الاستعمار البغيض وعنف الجائرين، رغـــم القـــيود والأغلال ورغم أنف أنجيس والحكام العظام الذين يريدون أن يكون هذا الشعب خاضعاً ليلاً على الدوام ...

انقشعت تلك الغمامة التي كانت ترابض على قلوبنا ليل نهار لترابط في مكان آخر من هذا الوطن الحبيب ... ففرحنا وحزنا (الــواع العملاق) فرحنا لإزالته من على صدورنا، وحزنا من أجل الذين بينهم هذا اللعين بحوره وظلمه، وعونا الله في صلواتنا أن يخفف عنهم كيد هذا العملاق وكيد حكام هذه الحكومة الظالمة الذين يبثون الرعب في القلوب وينذرون بالويل والثبور أين حلوا وكيد إيطاليا التي مثلت بهذا الوطن تمثيلاً شنيعاً يعجز قلمي الواهي على تصويره، وخاطري القلق على رسمه، وذهني الكليل على الإتيان بألفاظه ...

وختاماً، انطق معي أيها القارئ الكريم بكل ألفاظ التقدير لأولئك العمال الذين تحملوا الكثير من أنواع الاضطهاد على يد أنجيس اللعين أحد رجال إيطاليا الكثيرين الذين جلبتهم لتعذيب شعبنا المكافح الصبور.

فـي مـســه

في أواخر عام 1922 أخرجنا جماعة من درنة، وكنا أكثر من خمسين رجلاً لأجل العمل بناء على اتفاق حصل بيننا وبين أحـد الإيطاليـين قدم إلى درنة في طلب العمال لشق الطريق بمـنطقة مسه ولما بلغنا مقر الشركة (إن كان يجوز أن يطلق علـيه اسـم مقـر) فقد كان عبارة عن (براكتين) صغيرتين أحـدهما دكـان لبـيع المواد الغذائية لعمال والثانية ينامي فيها رؤسـاء الإيطاليين فقط، أما العمال العرب فمسكنهم العراء فهم يبيتون أو بعبارة أوضح يندسون كما تندمي الذئاب تحت أعضاء الشجر لتقيهم برد الليل وظل المساء.

كـان الواحد منها في المساء يحس كأن الشلل قد دب إلى جـسمه كلـه من شدة البرد وعندما اشتكينا إلى رئيس الشركة وطلبنا من أن يجعل لنا (براكة) نأوى إليها في المساء قال:

- لا أسـتطيع أن ألبي طلبكم في الوقت الحاضر وأترك بقية العمال ولكن الشركة ستجعل لكافة العمال مأوى قبل هطول الأمطـار وكـان لـدى الشركة قبل مجيئنا أكثر من مائتى عامـل أكثـرهم من سكان منطقة شحات وأخذنا نعمل مع أولئك العمال متحملين حر شمس النهار وبرد الليل القارس.

وأذى الأيـــام. ذات يـــوم تشاجر فيه أحد رفقائنا مع أحد الإيطاليـــين وكـــان ذلك الإيطاليين بذئ اللسان متغطرس يسب ويـــشتم العمال الذين معه بسبب وبدون سبب فطرد صاحبنا من العمـــل وما أن خرج صاحبنا حتى خرج في أثره من كان معه مـــن العمـــال الدرناويين وكان أكثر من عشرين عاملاً مما زاد الطـــين بلة النار اشتغال العمال كانزا آخر من يوجد من العمال في أقصى العمل.

ولـــم يـــزالوا سائرين وكلما مروا بجماعة من الدرناويين يقولـــون لهـــم اتركوا العمل واخرجوا فقد أهين فلان بالضرب والطـــرد مـــن العمل فيخرجوا وهكذا إلى أن وصلوا إلى مقر الـــشركة ولم يبق عاملٍ واحد من الدرناويين في العمل وخرج علينا رئيس الشركة وقال:

- مـــا هـــذه (العملـــة) وما هذه الفوضى .. كيف تتركون العمل؟

فقصصينا عليه القصة، فقال:

- ارجعـــوا إلـــى العمل ويرجع صاحبكم معكم وهو حر في اختـــيار أي مكـــان للعمل وأعاهدكم أن لن يحدث من أي رئيس عمل مثل هذا بعد اليوم.

والحـــق أن كـــان لينا ومنصفا ولكننا كارهين ذلك العمل لعدم وجود أماكن نأوى إليها في المساء فقلنا:

- نحـــن لم نعد نعمل ي هذه الشركة التي أهين فيها صاحبنا بالضرب والشتم أمام الخاص والعام.

فلمـــا يـــئس من رجوعنا إلى العمل بعد التهديد والوعيد والتحيـــر أرســـل عاملاً كان خادماً إلى مركز سيدي عبدالواحد برســـالة (البريجديـــر) المسئول بعمله فيها عن تمردنا وتركنا العمل.

إلــى الـمــركــز

بعـــد ساعة من الزمن وصل إلى مقر الشركة جنديان من جنود الكرابيناري أحدهما إيطالي والآخر عربي، فقال الإيطالي:

- أترجعون إلى العمل أم لا؟

قلنا جميعاً:

- لا .

خير لكم أن ترجعوا إلى العمل، وإلا سيحدث ما لا يحمد عقباه.

- لن نرجع إلى العمل، ولو أدى بنا إلى السجن أو الموت.

- إذن إلى المركز كلكم.

- حاضر.

وسرنا جميعاً متجهين نحو سيدي عبدالواحد .. وأخذ ذلك الـــركب يمتد ويطول شيئاً فشيئاً لأن السير لم يكن متساوياً فيهم

القـــوى والضعيف أو فيهم الشاب والشيخ كنت ترى من يحمل أدوات الطبخ، ومن يحمل أدوات الأكل، ومن يحمل غطاءه وهم مـــن كل حدب ينسلون إلى أن وصل أولهم قرب المركز فوقف ليلحق به أخرهم.

وعندما أشرفنا على المركز كان ذلك وقت انتهاء العمال مـــن العمل وأخذت الألغام تنفجر أمامنا والحجارة تتصاعد في الهـــواء ودوى الانفجـــارات يزلزل الجبال فتتجاوب له الأودية والشعاب فكنا كمن وصل ساحة قتال اشتد أدرارها.

ودخلـــنا المركـــز الـــذي امتلأت ساحته بنا وخرج علينا البريجديـــر يتبعه اثنان من الزبطية وبعد أن صوب إلينا نظراته برهة زمنية أمر أحد الزبطية أن يسوقنا إلى مكان يبيت فيه إلى الـــصباح وسار الزبطية، وسرنا خلفه إلى مكان خارج المركز، ثـــم أمـــرنا بالدخول إلى خربه قديمة يحيط بها جدار قد تداعت أكثـــر نواحـــيه أمـــا السقف فكان سليماً قوياً أما الفراش فكان مبسوطاً قبل دخولنا، وكانت الغبراء.

دخلنا إلى تلك الخربة المملوءة بالقذارة والبول .. ومالت الـــشمس للغروب، وأخذت تبتعد رويداً رويداً وأخذ الأصيل يفقد بهجـــته تدريجياً، ثم توارت الشمس في مغيبها كأنها لا تريد أن

تنظر إلينا ونحن وسط تلك الخربة المملوءة بالأوساخ وفضلات الإنسان أو كأنها مشفقة على أولئك العمال المساكين، وتريد أن يستريح الجميع من العناء والنصب الدائم وأخذت جيوش الظلام وراءهـا فـي الإسـراع لتخفي عنا منظرا أرض تلك الخربة الكـريهة وليست السماء حلها الزرقاء المزينة بالنجوم. وذهب عمـال المركـز إلـى مقره يريدون أني جدوا راحة لابد أنهم المـنهوكة، بعـض ساعات معدودات من الليل الساكن المريح، يـستأنفوا بعـدها علمهم الشاق المرير فرحين بنهاية ذلك اليوم الـذي سيسجل لهم مع الأيام الماضية التي مرت بهم في العمل وسيتاقـضون علـيه أجـرهم الـزهيد، ناسين أن يخصهم من عمـرهم، وأنه لاي عوض لآلاف الفرنكات والملايين لا بثمن بخس فرنكات معدودات لا تتجاوز أصابع اليد عدا.

ولكـنه، الـبؤس والفقر اللذان جعلاهم في غفلتهم ساهين وفـي المـوت راغبين وللحياة كارهين معلقون بين أمل وخيبة الآمـال. نـصيبهم العمـل الشاق وحظ الإيطاليين كسب المال والـراحة والهـناء أما نحن .. نحن الذين لا نعلم ماذا يكن لنا الغيب في مجاهله الغامضة مكثنا في حظيرتنا في همس وسكون وأنه المحزون إلى الصباح دون أن نذوق طعم العشاء اللهم إلا

الـــشاي وياليتها كانت تلك الوجبة فقط، فإننا لم نذق طعم إلغاء أيـــضاً فقـــد كان يوماً مشئوماً من أوله إلى آخره وعندما تنفس الصبح وطلعت الشمس من جديد وبعثت بنورها على البسيطة، لتوقظ الكائنات وأبدلت السماء لباساً جديد غير لباسها في المساء وأخـــذ الضباب ينقشع رويداً رويداً وبأن كل شيء كما خلقه الله وخرج عمال المركز إلى أماكنهم التي كانوا بها بالأمس وكأنهم لـــم يحسوا بذلك العمل الشاق المرير أو ليألمو له وقد تعوده من غيـــر شكوى من غير ملل فقد أنساهم طلب القوت العسير كمل ما هم فيه من بلاء وعناء ورقة وشقاء وبدا يعملون بجد ونشاط كـــأنهم خلقـــوا للعمل المستمر المتواصل أو كأنهم خلقوا ليشقوا ويسعد غيرهم من أرباب الشركات ورؤوس الأموال.

وخـــرجنا من تلك الحظيرة هروباً من منظرها ورائحتها الكريهة وقصد للتمتع بحرارة الشمس وتدفئة أجسامنا مما لحقها من برد الليل القارس. فلم تشعر إلا برجلين قادمين نحونا يحمل أحدهما (شوالا) فلان خبزا ويحمل الآخر (سطلا) فلان زيتا وقال أحدهما:

- (اقعدوا وجيبوا فيش تفطروا).

جلـــسنا حلقـــات وأخذ الرجلان يصب أحدهما الزيت في

الأوعــية التـــي بيننا وأخذ الآخر يرمي الخبز بيننا وبعد الأكل سألنا عن مصدر ذلك الفطور الذي انعش منا الأرواح والأجساد فقال أحد الرجلين:

- إنها صدفة من امرأة محسنة وهي تسألكم الفاتحة فقلنا:

- اللهــم اجعلهـــا (وين منوية) بحرمة خير البرية وبسر سورة الفاتحة .. آمين.

لابد أن تلك المرأة قد رأت بعينيها هؤلاء العمال المساكين ورأت حـــالهم وما هم فيه من بؤس وشقاء وهم وعناء وسمعت مـــن عمال المركز أننا ناس متمردون على العمل ويزج بنا في غـــياهب الـــسجن فأرادت أن نتقرب إلى الله فتطعم أبنا السبيل المـــساكين الـــذين هـــم أشنع حالاً من الأسرى وأشد بؤسا من الأيتام.

حقـــاً .. إنها صدقة مقبولة .. وكيف لا يقبلها الله سبحانه وتعالى وقد استقرت في بطون أناس جياع مضطهدين .. أناس لهـــم أربعـــة وعـــشرين ساعة بدون أكل .. أنا س لا يعلم ماذا ينتظرهم إلا الله .. أناس ينتظرون إحدى الكلمتين أما كلمة ظلم تذهب بهم إلى السجن والعذاب .. وأما كلمة حق تتركهم وشأنهم فهـــم فقراء إلى الأبد وعمال أرقاء للسادة الإيطاليين أينما ذهبوا

وحلوا ينفقون حياتهم في العمل المتصل لا يملون فيريحهم الملل ولا يظفرون من شيء فريحهم الظفر.

حقاً لم تخل الدنيا قط من أهل المروءة والخير فطوبى لك أيـتها المـرأة المحـسنة الجـنة لك أيتها المرأة الشفوقة البارة بالفقراء والمساكين وابن السبيل فستجزين يوم القيامة الجزء إلا وفـي يـوم تجـزء كل نفس بما كسبت إن الله لا يضيع أجراً المحسنين.

أمام البريجدير

بعد ساعة من الزمن قدم علينا أحد الزبطية وقال:

- إن البريجدير يأمركم أن تختاروا خمسة أنفار لمقابلته والتحدث معه اختير خمسة وكنت خامسهم ودخلنا على البريجدير في مكتبه، وبعد أن حييناه تناول قائمة بها جميع أسمائنا ورأيت موضوع أمان بعض منها خط أحمر، ثم أخذ يسأل كلا منا عن اسمه وينظر إلى القائمة وبعد أن انتهى من أسمائنا قال:

- لماذا تركتم العمل؟

(وهنا أشار إلى رفقائي بالتحدث معه) فقلت:

- تركناه .. أولاً من الإهانة التي لحقت بنا، والتي تلحقنا كل يوم من طرف رؤساء العمل ثانياً تركنا العمل من عدم وفاء الشركة بتعهداتها التي قطعتها على نفسها.

- ما هي هذه التعهدات؟

- مـــنها .. أنهـــا تجعل لنا مأوى تأوى إليه كل المساء، بل تركتنا كالذئاب نبيت تحت الأشجار.

- إن هذا شيء يسير ولا يصلح أن يكون سببا لتركككم العمل هكـــذا وتجعلون من أنفسكم شبه عصابة متماسكة بعضها ببعض .. ولابد من رجوعكم إلى العمل.

- لن نرجع إلى العمل أبد.

- هل يوافقك رفقاؤك على هذا القول.

- نعم سلهم.

فخاطب رفقائي قائلاً:

- هل توافقون على قوله هذا؟

فقالوا جميعاً : نعم.

- إذا لـــم ترجعوا إلى العمل فإني آمر بسجنكم، وستموتون جوعاً وعطشاً داخل السجن.

- إن هذا ظلم وسيادتكم بعيد كل البعد عن الظلم، وقد سمعنا هذا من كافة العمال الموجودين في هذا المركز.

فنظر إلينا نظرة استغراب أو نظرة تقدير، لا أدري أيتهما

كانـــت. وكـــأن هذه الكلمة أثرت فيه أو أثارت سروره لمدحنا لشخـــصه، ثـــم حول نظره إلى المكتبة التي أمامه وكان عليها الدفاتـــر التي بها إثبات الشخصية، لأن من واجب الشركة إيداع جميع دفاتر إثبات شخصية عمالها في مركز المنطقة، ثم تناول علـــبة ســـجائر كانـــت أيضاً على المكتبة وأخرج منها سيجاراً وأشـــعله ودرج يدخن في نهم. وساد المكتب سكون شامل حتى خـــيل إلـــى أن نـــسى وجودنا بجانبه، إلى أن انتهى تقريباً من تدخين السجارة ثم التفت نحونا وقال:

- إني أعرف .. أن لا الإهانة التي لحقت بكم كما تزعمون، ولا عـــدم وجـــود أماكن للمبيت، هما اللذان حملاكم على ترك العمل، ولكنها كانت مؤامرة مدبرة من جماعة كانوا معكم.

- لا ســـينيور .. لم تكن مؤامرة كما قلت .. ولا يوجد بيننا من يحرض عليها لأننا حاجة إلى العمل.

فقال مخاطباً الجميع:

- ألا تعرفون محرضي هذه المؤامرة؟

قلنا :

- لا سينيور.

- إذا لم تعرفوهم فأنا أعرفهم وسأبينهم لكم في هذه الساعة. ومدّ يده إلى رزمة من الدفاتر كانت منعزلة عن بقية الدفاتر تبلغ السبعة عداء، وأخذ يقرأ:

فلان بن فلان (اكس ريبيللي) كان عاصبا. وأخذ يقرأ ويضع أصبته على حرف (أكس) إلى أن انتهى من رزمة الدفاتر ثم رفع رأسه ونظر إلينا وقال:

- هؤلاء هم (دينمو) محركوا هذه الحركة.

(لحظتها فكرت أن سؤاله عن أسمائنا عند دخولنا عليه، كان القصد من معرفة هل فينا من كان عاصبا).

- لا سينيور .. إن هؤلاء لم يكونوا متصلين بهذه الحركة البتة. وإنما الذي حملهم على ترك العمل هو كونهم رفقاءنا ومن بلدتنا.

- سواء كانوا هم أو غيرهم، فإن هذا العمل (شق الطريق) يخص الحكومة أكثر من الشركة، وإن ترككم العمل يعد تمرد على الحكومة قد أسست هذه الطريق لمصلحتها الخاصة والإنعاش حالة العمال عامة.

- نحـــن لـــم نأت من درنة لأجل الفوضى وترك العمل، بل أتيـــنا لأجل العمل، ولولا العمل ما عشنا نحن ولا عائلاتنا التـــي خلفناها وراءنا وأن النفوذ التي نتقاضاها تصل إلى جيوبنا نحن لا إلى جيوب أهل الشركة. ولكن عندما فقدنا الـــراحة والتقدير في هذه الشركة أردنا أن نتركها ونرجع للعمل ضمن الشركات التي بالقرب من درنة والتي يعرفنا رؤســـاها حق المعرفة ويقدروننا حق التقدير لما نمتاز به من خبرة في مثل هذا العمل.

- لماذا تركتم العمل هناك إذن؟

- الطمـــع هـــو الذي أتى بنا إلى هنا .. أتينا لزيادة الأجور فوجدنا المذلة والإهانة.

- إذن .. ستنـــضمون إلـــى الـــشركات التي تعمل هناك إذا أخليت سبيلكم؟

- طـــبعاً .. لأننا عمال وفي حاجة إلى العمل لنحصل على نقـــود تسد حاجتنا من الطعام والملبس .. والمثل الإيطالي يقـــول: الـــنائم لا يـــصطاد السمك. والمثل العربي يقول: العمل هو الحياة .. ونحن نعمل لنحيا نحن وأهلنا.

ـ اتفقنا .. بشرط أنكم لا تدخلون مقر الشركة عند مروركم بهـــا ولا تكلمـــوا أحـــدًا مـــن العمال الذين بها أي كلام. وســـأعطيكم دفاتـــركم وأعفـــوا عنكم لأني لا أحب الظلم وعمال المركز يشهدون بذلك، وإني لم أضرب ولم أسجن مـــنهم أحد منذ أن بدئ في شق هذه الطريق إلى الآن .. كمـــا أني أحب دونه كثير لأني مكثت بها وأعرف البعض من أهلها.

إطــلاق الســراح

خــرجنا من المكتب فرحين مسرورين بإطلاق السراح، وأتينا رفقاءنا فبدؤا يسألوننا عما جرى بيننا وبين البريجدير من حــديث، واعلمناهم بما جرى، وأن سببب نجاحنا عدم الرجوع إلى الشركة الملعونة هو تماسكنا في عدم الرجوع.

بعــد قليل قدم علينا جنديان من جنود الكرابيناري أحدهما إيطالي والآخر عربي يحمل الدفاتر، وأخذ الإيطالي يقرأ أسماء أصــحاب الدفاتــر ويعطي كلامنا فترة الذي به إثبات شخصيته إلى أن انتهى من الجميع، ثم قال:

- الآن تــستطيعون أن تغادروا المركز لأن البريجدير أمر بإطلاق سراحكم.

نــادى المنادي من الرفاق الرحيل الرحيل، وأخذ الجميع في السير والرجوع من جديد فرحين متمرنين بالغناء، لا كالمرة السابقة، حيث كانت تسودنا الكآبة والحزن والقلق والاضطراب.

مررنا على مقر الشركة وقد فناه بالسب والشتم، واستأنفنا السير إلى أن وصلنا ضريح سيدي رافع بن ثابت الأنصاري.

فاشترينا ما يلزمنا من الخبز ويتنابه ليلتنا. وعندما طلعت الشمس في الصباح وأرسلت أشعتها الذهبية على البسيطة كنا قد انتهينا من شرب الشاي وحمل كل منا متاعة على كاهله وأخذنا في السير تلقاء مدينة شحات.

وطـــال بـــنا السير، وتصبب منا العرق، وأخذت الشمس تـــزداد حرارتها كلما ارتفعت في قبة السماء، وصبرنا لها صبر الكـــرام، وحثثنا السر، وكافينا الحفاة ومن ينتعل نعلاً أكل الدهر عليه وشرب وقد لفه كلي يثبت فوق رحله ويبقى مع أطول مدة ممكنة.

وجـــاء وقت الظهيرة، وزاد وهج الشمس، ونزل سوطها الناري يلهب أجسامنا بحره الشديد، كأنما تريد أن تمتحن صبرنا وجلدنا لتحمل أشد حرارتها في ذلك اليوم العسير.

غيـــر أن النـــسيم كان بنًا رؤوفًا رحيمًا، فكان بين الحين والحـــين يرســـل إلينا نسمات لطيفات تهون علينا وطأة الشمس وحـــرارتها وتـــنفس عـــن القلوب رهقتها، وتزيل عن الأجسام عـــرقها. وأســـرعنا فـــي اسير كأننا فلول جيش منهزم إلى أن

وصـــلنا إلى مدينة شحات والتجأنا إلى ظل جدار منزل طالبين حماية الظل من وهج الشمس المحرقة [1].

وجلـــس بعضنا، وانبطح البعض الآخر على الأرض من شـــدة التعب، وذهب من ذهب إلى الوسق بحثا عن السيارة نقلنا إلـــى جرتة بعد برهة من الزمن انفتح باب ذلك المنزل وخرج مـــنه إيطاليا يتبعها كلب صغير أبيض اللون فما أن رأنا أحدهما حتى قال:

- مـــا هذه الناس الراقدة على الأرض كما ترقد النعاج (بر .. بر .. فيسا) بعيد .. بعيد .. سريعا.

وعندما قمنا، قهقه ملء فيه وقال لصاحبه:

- لـــم أر كذرية العربق .. صفاة عراة وعدم تغذية .. ومع ذلك فهم غلاط شداء؟

فقال الآخر:

- إنهم مثل (الميكروب) يعيش وينمو وسط القذارة.

وسار نحو السوق وتخلف الكلب عن السير فناداه أحدهما

---

(1) كان ذلك قبل أن تغرس تلك الأشجار الموجودة الآن مضللها.

ووقف إلى أن لحق به، فربت على رأسه ورفعه بين يديه وقبله في فمه ..

انـــتقل الـــرفاق إلى مكان آخر، وسرت معهم باكي القلب بطـــيء الخطـــا قد أثر في نفسي وجرح فؤادي قول الإيطالي، فجلست منفرداً عن الجماعة وقد علا وجهي الوجوم، وتهت في تفكير عميق.

جلس بجانبي وقال:

- رأيت فعل هؤلاء الكلاب؟ حتى الظل يحسدوننا!

- آه .. يـــا ســـيدي محمـــود لـــو عـــرفنا ما فاه بين هذان الإيطاليان من السب والإهانة لهان عليك طردنا من الظل.

- وهـــل غاب عنا السب والإهانة من يوم وطئت هذه الدولة الغاصبة أرضنا إلى هذه الدولة، ورأيت الكثير منها عندما قامـــت بجلاء البادية عن اراهيم .. رأيت جنود الأحباس والكـــرابيناري يـــسوقون الـــناس كما تساق البهائم مئات الأمـــيال دون رحمـــة ولا هـــواة ولا شفقة .. يضربون بالرصاص الشيوخ العاجزين عن السير ويتركونهم طعاماً للـــذئاب ويجلدون النساء ويحثونهم على السير حتى تسيل

الدماء من أقدامهم كل من يتخلف عن السير ولو كان سبب التخلف قضاء الحاجة البشرية ..

وحـــصرت البقية الباقية داخل الأسلاك الشائكة في أرض رملـــية لا ماء فيها ولا كلأ وملأت السجون بالأبرياء وضاقت أرض العقيلة والبريقة على سعتها بقبور الشعور الشهداء ..

لقـــد يمعـــت ورأت الكثيـــر يـــا بني عندما كنت داخل المعـــتقلات سمعت الكلام الذي يفتت الأكباد ورأيت ما يشيب لـــرؤياه الأطفـــال .. رأيت الرجل الشهم الأبي يجلد كما يجلد الفاجر الأثيم دون أن نستطيع تحريك أي ساكن رأيت الرجل والمـــرأة يجلسان جنباً لجنبي لإزالة الضرورة على شهد ممن حـــولهما من الناس معانا في التنكيل إيغالا في الإهانة وإذلالاً للنفوس ..

كـــل ذلـــك من حكم هذه الدولة المستبدة وقانون حكامها الطغاة لإطفاء النخوة العربية في قلوب شعبنا المنكود الذي أوقعه سوء الحظ تحت رحمة حكومة لا ترحم ولا تلين .. يا ما رأيت يـــا بني من أمور فاحشة ارتكبتها معنا هذه الدولة الفاجرة يعجز عـــن حملها أي إنسان غيرنا ولوتها عليك لاحتجت إلى أيام بل شهور دون أن أنتهى من سردها عليك ..

وهأنـــذا رجعـــت من تلك المعتقلات بعد فقدت الكثير من العشيرة والأولاد، وبعد أن ظننت أنني لم أرجع.

ثم أطرق برأسه وقال:

ـ (الهم ما يقتلش غير الشيب).

ـ أنـــا يـــا عم محمود اتعش أمة منيت بالاستعمار على هذه البـــسيطة اضطهاد وظلم من الحكومة ولهانة وازدراء من أبنائها المتغطرسين الذين يمسون على أرضنا تيها وخيلاء كـــأنهم جـــنس من السادة ونحن عبيدهم الأذلاء .. أن هذا الإيطالـــي الدخـــيل الأكل لخيراتنا الناكر لفضلنا قد أهاننا علـــى مـــسمع مـــنا دون حـــياء أو خجل بكلمات التحقير والازدراء، وشبهنا بديدان القذارة والأوساخ.

ـ يـــزول يا بني هذا الاضطهاد إن شاء الله إن حكومة هذا بهاد أبها لابد أن تنهار. فإذا ظلمت الدولة ارتقب زوالها.

ـ ارتقـــب زوالها؟ كلام يقال لتهدئة النفوس الثائرة وتعزية القلوب على أمره.

وســـقطت مـــن عيني دمعتان كأننا قد تحجرتا منذ جلس الشيخ بجانبي، سقطتا بعد أن عجزت عن إمساكها.

- (لا تبك يا ولد .. وحياة سيدك أن تتفرج .. أو حياتك أن يمشو من هل وطن).

فهززت رأسي علامة النفس خشية إذا تكلمت انفجر البكاء

- (أو حياة سيدك يمشوا وملاعق الجير في إيديهم).

فقلت بصوت تخنقه العبرات:

- أه يا سيدي محمود .. متى يأتي ذلك الوقت الأغر الذي يأخـذ فـيه هذا الشعب حقه ويضع عن أصره وإغلاله ويـستريح مـن الظلم الجائم والبغي القائم .. متى يأتي ذلـك الـيوم لكي نستخلص فيه أرضنا من أيدي هؤلاء الطغاة الظالمين، ونرد فيه حقنا وحريتنا بعد الاستعمار الطـويل متى يرى هذا الشعب الأبى فجر حياته وبداية خلاصه ومبدأ كيانه ونهضته .. متى يا سيدي محمود .. متى .. متى.

فاستطرد الشيخ قائلاً هذين البيتين:

لابـد مـن الـريح تـنذار وإجـى الغيم بعد القبالي
ولابـد مـا يـرحم الله واصـن مـولى الموالـي

بعـــد قلـــيل قدم الجماعة الذين ذهبوا إلى السوق بسيارة كبيرة أجروها من إيطالي يدعى (زمبوني) وركبنا بل حشونا فيها جميعاً كالسردين داخل العلبة، وسارت بنا متجهة نحو البلد العزيز درنة، وكلما تململ أحد وطلب التوسيع عنه قليلاً قال ذلك الشيخ (وأعطى).

ـ أحمل طيفك لأجل رفيقك.

فـي الأبـرق

عـــندما بـــدأ فـــي إنشاء قرية الأبرق وبنائها عام 1943 خرجت من درنة برفقة جماعة من العمال تبلغ اثنى عشر رجلاً وعـــندما وصلنا الأبرق اتصلنا بمكتب الشركة المتعهدة بالبناء، وقابلـــنا المهـــندس المسئول عن العمل وعندما سألنا عن العمل الذي تتقنه قلنا:

- قطع الحجارة ولنا خبرة جدة في عمل الألغام وتفجرها.

- إذاً تذهـــبون إلـــى (المقطع) وتبدؤون مع من هناك من العمال.

وفـــي الصباح ذهبنا إلى المحجر وسلم لنا رئيس العمال الإيطالـــي أدوات العمـــل، وبـــدأنا نعمل في حفر الألغام وكان بالمقطع قرابة العشرين عاملاً قبل مجيئنا غير أنهم لم تكن لديهم الخبـــرة الكاملة في تركيز الألغام وتفجيرها فلم يمض ذلك اليوم حتى سلم لنا رئيس العمال البارود والفتيل لأنه رأى فينا الخبرة الكاملة، وقال:

- أنتم أحرار في العمل وفي تركيز اللغم حيثما شئتم.

وفـــي اليوم التالي أخذت أنا ورفيقي عياد المسماري في

تخطـــيط مواقع الألغام وبيان مواقعها للعمال وعندما أتى موعد نـــسق الجـــبل باللغم كنا نحن اللذين ملأنا الألغام وأشعلنا النار بالفتيل وتداعى الجبل بالحجارة الكثيرة التي لم ير الرئيس مثلها مـــن قـــبل نعجب بها أيما إعجاب لكثرتها وبالخبرة الجيدة التي تتمـــتع بها أصبحنا مسيطرين على العمل وأصبح الرئيس يعتمد علينا في كل شيء.

وفـــي يـــوم مـــن الأيام قدم علينا الرئيس وبيده باكو من البارود وقدمه إليّ وقال:

- خـــذ هـــذا النوع الجديد من البارود وجربه في لغم مفرد لتعرف قوته.

فأخذتـــه منه وقرأت ما عليه من الكتابة، وهي عبارة عن اسم نوع البارود واسم الشركة المنتجة ومحل إقامتها دون الباكو.

فالتفت نحوي عجبا وقال:

- هل تحسن القراءة والكتابة بالإيطالية؟

- نعم .. وأحصل على الشهادة الابتدائية.

- إنـــك لذكي حقاً .. أنا مع كوني إيطالي لا أعرف القراءة والكتابة.

- وكيف تسجل أسماء العمال والحاضر منها والغائب.

- إنني آخذ الأرقام فقط.

ثم أراني سجل اليومية للعمال فرأيت كتابة الأرقام وكأنها كتابة طفل في السنة الأولى التحضيرية. ومن ذلك اليوم أمرني أن أسـجل له أسماء العمال وأرقامهم .. ووجدنا راحتنا مع ذلك الإيطالي لكونه جاهل بالكتابة كما هو جاهل بالعمل.

وفي ذات يوم لم ندر إلا والمهندس واقف علينا من أعلى المقطع، وكانت الساعة قرابة الثانية إلا ربعا بعد الظهر فصاح قائلاً:

- جميل جداً .. إلى الآن لم تنهضوا إلى العمل.

وكـان وقـت البدء في العمل الساعة الواحدة والنصف. فكان أو لمن تكلم أما:

- أنـنا لم نترك العمل إلا في الساعة الثانية عشرة والنصف بدل الساعة الثانية عشرة؟

- لماذا؟

- لأجل الانتهاء من عمل الإلغام وملئها وتفجيرها. انظر إلى

الحجــارة المتداعية التي تنتظر قدوم العربات وحملها إلى مكان البناء.

ونظر إلى الحجارة فأعجبته كثرتها، فالتفت نحو الرئيس وقال:

- صحيح أنكم تأخرتم في ترك العمل؟

فجمع الرئيس كل شجاعته وقال:

- نعم .. يا سيدي المهندس.

نسكت المهندس ولم يقل شيئاً واستمررنا في عمل الشاي إلى أن بلغت الساعة الثانية، ونهضنا إلى العمل وذهب المهندس فقال الرئيس:

- لم أسمع جواباً حاضراً كهذا الجواب. قلت:

- لــو تركنا الشاي وقمنا إلى العمل أمامه منزعجين لعرف أنــنا متكاسلون عن العمل للحقنا منه عقاب ظالم ويلحقك أنت أكثر منا.

فقال باقي العمال:

- إن رد جامــع مقــنع كفانــا بــالله بـــه شر هذا المهندس المتغطرس.

شجار مع المهندس

وفـــي ذات يوم جمعت الشركة جميع ما تملك من عمال لأجل (الصوليته) تسقيف دائرة الفاشيو بالأسمنت المسلح وكنا نحن عمال المقطع في مقدمة العمال الذين جئ بهم وكان نصيبنا العجن الذي يعتبر أشق عمل في هذا المشروع.

وأخـــذنا نعمل بجد ونشاط وكان الماء يؤتي به من مدينة شـــحات بواســـطة سيارة في براميل قذرة للعجن وأخرى نظيفة للـــشرب فلما كان بعد الظهر نفذ الماء النقي المخصص للشرب واشـــتد بنا العطش من كثرة صعوبة العمل حتى اضطر بعض العمـــال للشرب من براميل العجن من شدة العطش. فلما مرّ بنا المهندس وأوقفته وقلت:

ـ أنـــنا نكاد نموت من العطش، فإذا لم يأت الماء النقي في هذه الساعة فإننا سنترك العمل.

ـ كيف تتركون العمل وهذه البراميل ملانة بالماء؟

- إن هـــذا الماء لا يصلح للشرب، وتعافه حتى الذواب فما بالك بالإنسان.

- أنتم العرب تشربون في أعفن من هذا الماء أم أنتم تمدنتم؟

- لا تقـــل هذا الكلام. لأنه لا يصدقك أحد نحن أهل المدينة والحـــضارة منذ القدم ونحن الذين أخذت عناد دول أوربا الحـــضارة والمدنية، ثم يجب أن نعرف جيداً أن الإنسان الـــذي تتكلم معه لم يذق طيلة حياته ماء قذارة لأني عشت فـــي مدينة تجري في شوارعها السواقة وتجد في كل بيت الحنفيات العديدة تدفق بالماء الزلال.

ثـــم دار بينـــنا شجار عنيف بالكلام وكان ذلك المهندس شخصية طاغية لا يحب أحدا يعارضه الكلام ويخالفه في شيء متكبـــر لأنـــه جديـــد علـــى أرض ليبيا جهل بكرامة أهلها هذه الكـــرامة التـــي عجـــزت حكومته على طمسها بالحديد والنار وعندما طالت بيننا المشادة، قال:

- أنت دائماً كثير الكلام .. ودائماً تتعرض له.

- لـــم أتعـــرض للكـــلام إلا عندما يخصنى .. أم تعد طلبي للملء تعرضا؟

- الأحسن أنك بعد انتهاء العمل تأتي إلى المكتب وتأخذ حسابك.

- بل الفضل في هذه الساعة.

وخرجت من العمل فلما رأى ذلك رفقائي خرجوا جميعاً للعمل وقالوا له:

- بل أعمل حسابنا جميعاً.

وسرنا جميعاً نتبعه إلى المكتب وعمل لنا حساب بعد أن خصم اللعين نصف ذلك اليوم بحجة اننا لم نتمه في العمل وأعطى كلا منا بطاقة بها المبلغ الذي يستحقه، وقال:

- غداً قبل الساعة العاشرة تأتون إلى هنا وتأخذون ما يخصكم من النقود من صاحب الخزينة بموجب هذه البطاقات.

وبينما كنا جلوساً حول مائدة الشاي في المساء، إذا برئيس العمل في المقطع كالمعتاد

فقلت: لقد أخذنا الحساب وعزمنا على السفر

ثم أريته أوراق الحساب. فقال:

- أعــرف هــذا جــيداً، لأني بعد انتهاء العمل دخلت على المهندس وسألته عما جرى بينكم وبينه، فقال:

- عملت لهم الحساب وغدا يأخذون دراهمهم ويذهبون حيث شــاءوا فقلت: إن فقد هؤلاء العمال بعد خسارة لا تعوض علــى الــشركة لأن لهم الخبرة الكاملة في تركيز الألغام وتفجيرها.

فقال:

- إنه يوجد لدينا عمال كثيرون غيرهم.

فقلت:

- نعــم إن العمــال كثيــرون ولكن يجب أن يعرف سيدس المهــندس أن قبل أن يأتي هؤلاء العمال كنا نصرف في اليم أكثر من ثلاثين كيلو متر من البارود ولكننا لا نتجاور نــصف هذه القيمة والحجارة متوفرة عن ذي قبل بكثير، كــل ذلك بفضل خبرة هؤلاء العمال لأنهم يعرفون تركيز اللغم كما ينبغي أن يركز.

فقال:

- أنا الذي أذهب إليهم وأرجوهم لأني لأعرف أنهم قد أتيتهم

وطلـــبت مـــنهم العـــودة إلـــى العمل فإنهم يلبون رجائي ويرجعون إلى العمل.

فقال:

- أنت وشأنك.

وهأنـــذا أتيت أطلب منكم العودة إلى العمل فمن أجلي أن تأتـــون غـــدا إلى المقطع وتتركون المهندس وشأنه أنتم تعملون معـــي لا مع المهندس ولا تأبهون له ولعربدته، أنا لأزال طرياً مـــن إيطاليا فقد جلبته الشركة عندما بدأت في هذا العمل فهو لم يعرف طبائع العرب بعد ولا عزة أنفسهم اعتمدوا عليّ أنا.. أنا رفيقكم في العمل.

فلما انتهى الرئيس من كلامه ومن سرد ما دار بينه وبين المهندس من كلام بشأننا قلت لرفقائي:

- ما رأيكم؟

- الرأي لك. نحن لم نترك العمل إلا من أجلك أنت.

- والله لو تمض لنا على إضراب مسه إلا مدة يسيرة لتركت هـــذا العمـــل، ولكن خير لنا أن نمسك بهذا العمل وله من أجل هذا الرئيس الذي نحن معه في أحسن حال.

ورضى الجميع بالبقاء في العمل فقلت لليسير:

- إننا نرجع إلى العمل من أجلك أنت لا من أجل المهندس، ولكـــن بشرط أن يرجع لنا المهندس، لكن بشرط أن يرجع لنا المهندس نصف هذا اليوم الذي خصمه ظلما

- لكم على هذا وأنا الكفيل به.

وبقى معنا إلى بعد نهاية الشاي وخرج وهو لنا شاكر.

في رأس الهـلال

كـــان المتعهد الإيطالي المدعى (بيترو فونتا) قد أعطى التـــزاما ببناء (حوش) رأس الهلال وأذاع؛ بوح أنه في حاجة إلـــى حميـــر وجمال لنقل الأسمنت من مدينة سوسه إلى رأس الهلال، وجعل أجرة القنطار خمسة وعشرون فرنكا.

وكـــنت في ذلك الوقت أملك جملا فسجلت اسمي مع من سجل اسمه من أصحاب الحيوانات في ذلك العمل.

وخرجنا من درنة جماعة ومعنا أكثر من عشرين حمارا، أما الإبل فلم يكن معنا غير جملي، وعندما وصلنا لرأس الهلال بتـــنا به تلك الليلة، وفي الصباح الباكر سلمنا المتعهد رسالة إلى بائـــع الأســـمنت فـــي سوسة. وكان ذلك الوقت لم يتم فيه شق طـــريق عقبة رأس الهلال وليس في استطاعة السيارة أن تصل إلى مكان العمل. وتوجهنا نحو سوسة عن طريق الساحل، وهو ممـــر ضـــيق لم يتسع إلا لمرور حيوان واحد، كما أنها وعرة المـــسالك لـــم تستطع السير فيها إلا بجهد جهيد، كثيرة الأودية الصعاب مثل وادي المهبول وغيره من الوديان الأخرى.

وعندما رجعنا من سوسة وكان الدؤب محملة بالأسمنت، وكانـــت الطريق أشد صعوبة من الذهاب، وذلك لضيق الطريق وكثـــرة الأشـــجار المتـــشابكة بعضها ببعض على طول جانبي الطريق مما أدى إلى تمزيق كثير من شكائر الأسمنت وكان بين الحـــين والحـــين يقـــع الحمار بحمله على الأرض من وعورة الطريق فنبادر إلى رفعه، أو يشتبك بين شجرتين.

فنسعى إلى تخليصه .. وهكذا إلى أن وصلنا رأس الهلال بعد الجهد الجهيد والتعب الشديد.

وعـــندما ســـلمنا الأســـمنت إلى المتعهد ونظر إلى حالة الشكائر قد أصابها العطب وانساب منها أكثر الأسمنت.

قلنا:

- من وعورة الطريق وكثرة الأشجار المتشابكة بها ...

- بل من قلة عنايتكم أنتم لأن تلفها لا يهمكم، بل يخفف على حـــيواناتكم أثقالها، أما تعلمون أنني ملزم بإرجاعها سليمة إلى أصحابها.

وأخذ يكثر من السب والشتم فأغاضنى من ذلك فقلت:

- أنا لم أعد أذهب إلى سوسة مرة أخرى.

- لماذا؟

- أولاً: لأنها مل لنا بتمزيق الشكائر عمداً لوعورة الطريق، لأنـــي أخـــشى أن يقـــع جملـــي فينكسر فلا تنفعني أنت والخمـــيس فـــرنكا التـــي أتقاضاها منك مقابل هذا التعب الجسيم وهذه الشتائم التي كلتها إلينا في أول الطريق.

- إن كلامـــي غير موجه إليك لأن الشكائر التي على الجمل هي أحسن حالاً من التي على الحمير.

- سواء كان الكلام موجهاً إلى أو إلى رفقائي فإني لن أعود مرة أخرى كما قلت لك.

- لابد من ذهابك أو آتياك بالأسمنت كباقي العمال.

- لا أذهـــب أبـــدا، إلا إذا أعطيتني تعهداً كتابياً في يدي إذا جملي أي ضرر تكون أنت مسئولاً عن دفع قيمته.

- لأعطيك شيئاً من هذا، ولابد من ذهابك لأنك متعهد بذلك ونحن أمضائك.

- ولكـــن عندما كنا في درنة قلت أن الطريق سهلة، وحيث إنهـــا بهذه الصعوبة فأنا لأعمل عليها أبد، وخصوصاً بعد ما بدر منك من الكلام والسب والشتم في حقنا.

ثم خرجت من عنده.

الرسالة المشئومة

فلما كان الصباح، ذهب أهل الحمير إلى سوسة، وتخلفت أنا فقال المتعهد:

ـ لا زلت متمسكاً برأيك.

ـ نعم .

ـ الأحسن لك أن تلحق بهم.

ـ لا.

فهز رأسه وقال:

ـ ماذا تريد أن تعمل إذن؟

ـ أريد أن أرجع إلى درنة.

ـ أنت وشأنك .. كم أخذت من النقود في درنة؟

ـ خمسين فرنكا فقط. وأتيت البارحة بقنطارين من الأسمنت

ـ حسن. ولكن أرجو منك أن تحمل رسالة إلى (بريجدير)

القــبة هي يرسل لنا عددًا أن من الجمال، لأنها عالية عن الأشجار والأسمنت الذي على ظهورها يكون سليماً من التلف.

- معــذرة. أنـــه طريق الساحل لا عن طريق القبة، لذلك لا أستطيع حمل رسالتك.

- أرجــو حمل هذه الرسالة وتغيير طريقك لأني في حاجة شديدة إلى جمال لحمل الأسمنت لأن الحمير غير كافية.

ولم يزل يرجوني إلى أن وافقته على رغبته فدخل إلى (البراكة) وبعد برهة سلمني رسالة وقال:

- سلمها إلى البريجدير رأسا ....

أخــذت الرســالة وركبت جملي .. وما أن سار بي قليلاً حتـــى أخــذت أفكر في الرسالة وفيما تحويه وحسبت لها ألف حساب وتذكرت هز لرأسه وما ينطوي عليه من تهديد ووعيد، وقلــت مخاطباً نفسي: هل أكون جاهلاً بما تحويه هذه الرسالة؟ .. وهــل أكون مثل الذي يحمل أمراً بإعدامه إلى جلاده؟ لا .. لا.. والله ثم حاولت حل الظرف بسهولة إلى أن فككته ثم قرات ما فيه .. فإذا مكتوب ما نصه

إلى سيادة بريجدير القبة المحترم

بعد فائق السلام

عند وصول حامل هذه الرسالة إلى جنابكم، أرجو رجاء خاصاً معاقبته معاقبة صارمة جزاء له تركه العمل وتحريضه للعمال على ذلك . ولكم جزيل الشكر.

متعهد أشغال رأس الهلال
بيبرو فونتان

وما انتهيت من قراءة هذه الرسالة حتى ذهلت وتملكني الدهش .. ماشاالله .. أهذه هي الرسالة التي تريد مني أن أحملها؟ لقد صدق ظني في لؤم نفسك وخبث سريرتك وخيانتك بابيترو.

رباه مالي أينما حللت أجد شرا.. هل هذا سوء حظي أنا أم أن الحياة الإنسانية ملأ بالمتاعب والشرور والأحزان .. رباه ما هذه الورطة التي وقعت فيها .. رباه أدعوك أن تجعل لي فرجاً ومخرجاً. لعنة الله عليك يا بيترو .. أهذه الرسالة التي تريد أن أحملها إلى البريجدير؟ وتدعى أنك تطلب فيها أن يرسل لك جمالاً .. ماشاالله. ياللك من كذاب منافق، وغد لئيم كافر لقد صدق من قال:

كل عدو ترجى محنته   إلا من عاداك في الدين

أهــذا أنت يا بيترو .. تقول أنك تطلب من البريجدير أن يرســل لك جمالاً، والحقيقة أنك تطلب منه أن يسجنني ويعذبني لعــنة الله عليك .. ولكنك ملعون بدون شك سواء لعنتك أم لا، لأنــك من القوم الملعونين .. من قوم جلبوا على الجشع والطمع والغــدر وخيانة الأبرياء بالخسة والنذالة .. ياللعجب من ظلمك يا بيترو . أما أن أعرض حياتي وحياة جملي للخطر أو لمصير إلى السجن والعذاب .. ثم جذبت زمام جملي وأوقفته على السير وتهت في حيرة ووجل من تحية الرسالة المشئومة.

ماذا أنت فاعل يا فلان؟ هل حمل هذه الرسالة إلى البريجدير.

وأكون عرضة للضرب والحبس وترك جملي بدون علف إلى أن يهزل ويموت؟؟

لا .. لا.. لا يكــون هذا أبداً ودار الأمر كله في مخيلتي، وحــسبت ألــف حساب، وتركت العنان لذهني يسير بطيئاً في التأمل والتفكير خشية أن أقع فيما لا تحمد عقباه ..

هــل أمــزق هذه الرسالة الملعونة؟ ولكن تمزيق الرسالة وعــدم تبليغها إلى البريجدير يسبب الحبس لأني لم أبلغ رسالة

إلـــى صاحبها وربما الدعى المتعهد أن بداخلها مئات الفرنكات وقد سلمها لي أمام شهود.

ربـــاه ... مـــا هذه البلية التي وقعت فيها .. ما ذنبي وما الــذي جنيــته ؟ .. هل أمضي إلى القبة ويكون الذي يكون من أنواع العذاب والتعذيب، وإجباري على الرجوع إلى العمل!

لا .. لا يكون هذا أبداً الأفضل أن أذهب إلى درنة، فهي أقــل عــذاباً وتنكــيلاً من بريجدير القبة المستبد برأيه وحكمه وســلطته أن درنـــة توجد بها حكومة وقانون ويوجد بها سجن ومساجين، عسى أن أكون معهم وأستأنس بهم.

أمـــا بريجديـــر القبة أو بالأحرى حاكمها الظالم فليس له قانون إلا سوط والعذاب الشديد فهو مطلق الحرية يفعل ما يشاء بالرعايا المحكومين ولا يسأل عما يفعل لأنه ينفذ برنامج لإذلال والــتعذيب الذي تتخذه الحكومة لخنق هذا الشعب بغية انقراضه وإحلال الإيطاليين مكانه، في هذه الأرض التي استقر فيها أكثر مـــن ثلاثـــة عشر قرنا أمنا مطمئناً إلى نزلت بها هذه الحكومة الظالمة التي لم تترك سبيلاً لسفك الدماء إلا سلكته فوضعت كل جزء من هذه الأرض الطيبة جلادين ليبثوا الخوف والرعب في

قلـــوب المواطنين، ليكونوا خاضعين مستسلمين لحكمها المهين وعبيد أرقاء لأبنائها الإيطاليين.

وأن بيترو ما أرسلني إلى بريجدير القبة إلا وهو يعلم علم اليقـــين أنـــه ســـوف يعذبنـــي العذاب الشديد لجرأتي على عدم الخـــضوع له والعمل معه سأذهب إلى درنة بدل القبة أن هداني الله إلى فك رسالته ومعرفة خيانته.

ثـــم حثثت جملي متجهة نحو درنة وأنا أقول .. وأفوض أمري إلى الله ... لابد للحق أن ينتصر ... وصلت منزلي وبت بـــه إلـــى الصباح، ثم حملت الرسالة متوجهاً نحو المتصرفية، ودخلـــت علـــى الـــسيد (علي أفندي الجربي) رئيس الشئون العـــربية آنذاك، فوجدت بجانبه العمدة مفتاح الإمام، فقصصت عليهما القصة من أولها إلى آخرها، فقال علي أفندي:

- لقد أحسنت صنعاً بعدم تمزيقك الرسالة، كما أحسنت بعدم ذهابك إلى القبة، التي لو ذهبت إليها لأذاب السياط جسمك ولأجبرت على الرجوع إلى العمل.

ثم قال:

- تحب أن نحيط البريجدير علماً بالرسالة وأسبابها.

ثـــم تـــناول ســـماعة التلـــيفون وتكلم مع البريجدير في الموضوع واستأذنه في فك الرسالة وتلاوتها عليه ليطلع على ما فـــيها وبعـــد تلاوة الرسالة استمع علي أفندي لحديث البريجدير الذي أضحكه ثم التفت نحوي وقال:

- الآن لا تخف .. فقد انتهت المسألة بسلام.

خرجت من عنده بعد أن شكرت له حسن صنيعه العظيم الـــذي فـــرج عن كربتي التي أوقفني فيها ذلك الإيطالي اللئيم، عـــندما رفضت أن أعمل معه على طريق وعرة المسالك كثيرة المرافق .. ذلك الإيطالي الذي كاد أن يوقفني بظلمه وحيلته في يد طاغية ظالم يسجن ويجلد، ويفعل ما يشاء ويختار، ودون أن يـــستمع إلى تظلم المظلوم وأنه المخزون، وإنما حسبه أن يشير إلـــيه أي إيطالي، وجبة أو صغير، نحو العربي فينتقم منه شر انتقام، سجناً وضرباً ودوساً بالأقدام.

خـــرجت مـــن عنده شاكراً له، وداعياً إلى الله يزيح ظلم بيترو وحكومته من هذه الأرض الطبية حتى يتمكن أبناؤها من العـــيش الـــرغيد والحـــرية الكاملة دون السلطة المستبدة وبث الرعب والتخويف والاضطهاد.

اللهـــم يا رب أنك تعلم أن الإيطاليين قد استبدوا وبحكمهم

ونشروا ظلمهم في هذه الأرض، وضيقوا علينا في جميع مرافق الحـــياة، واتخذونا عبيداً أرقاء نخدمهم بالأجر الوهيد، ومن يأبى يساق إلى السجن ويجلد بالسياط ويقيد بالحديد.

اللهـــم يـــا رب، فـــرج عن هذا الوطن هذا الظلم الجائم والحكم القائم، وأرزاق أهله الحرية والراحة والاطمئنان في ظل دولـــة مـــن أبنائه البررة الميامين الذين يعرفون ما للشعب من حقوق وواجبات.

إنـــك تعلـــم يا رب ما نعانيه منذ أن اغتصبت هذه الدولة المـــستبدة أرضـــنا إلـــى اليوم وما قتلت وشردت وسجنت من الرجال الأبرياء وما يتمت من الأطفال ورملت من النساء.

اللهـــم يـــا رب، أنقـــذ هذا الشعب من مخالب هذه الدولة المـــستعمرة وابعث فيه قوة من عندك واخلق منه رجالاً أقوياء صـــالحين وأيدهم بنصرك وتأييدك لاستخلاص هذا الوطن من مخالـــب الـــذل والاســـتعباد والسير به نحو الحرية والاستغلال والراحة والاطمئنان على ما تشاء قدير.

اللهـــم بـــادر بـــرحمتك نفـــذ أوشكت هذه الدولة الظالمة الطاغية أن تأتي على البقية من أبناء هذا الطن أنك سميع الدعاء سميع الانتقام من الظالمين وممن تكبر وتجبر وطغى.

الظلم السافر

عـندما اشتدت الغازات الجوية البريطانية على البلاد في صـيف 1940 تركت عملي وغادرت البلاد مع عائلتي وبعض العائلات الأخرى خوفاً من الغازات الجوية متجهين نحو الساحل الـشرقي وبعـد أن اجتزنا وادي الحصين نزلنا بإحدى الشعاب وكان بها عدة كهوف اتخذنا منها سكناً وملجأ.

ومـرت بـنا الأيـام تتـبعها الليالي والشهور في هدوء واطمئنان، لا خوف ولا رعب يقلقان مضاجعنا، وكلما احتجنا، وكلمـا احتجـنا إلـى شيء ذهب بعضنا إلى المدينة ليأتي به، وهكذا.

وفـي يوم 12 يناير 1941 ذهبت أنا وعاشور كالعادة إلى المدينة وعندما أردنا الرجوع إلى أهلنا اتصل بنا عوض وقال:

- أريد أن أذهب معكما لأنظر هل يوجد كهف بجانبكما يسع عائلتـي وخرجنا من المدينة نحن الثلاثة ولم نزل سائرين إلـى أن اجتـزنا الـوادي وتوسـطنا الساحل الأقصى، فلـم تشعر إلا وطلقات نارية نطلق من ورائنا فتطلعنا إلى الـوراء، فـرأينا على بعد ثلاثمائة متر تقريباً عدة جنود

إيطاليـــين مـــصوبين نحونا البنادق، ودهشنا عندما سمعنا الطلقات النارية نطلق علينا من جديد ورأينا العجاج يثور مـــن دفـــع الرصـــاص على الأرض بجانبنا مباشرة فقال عاشور وكان مدر بأعلى الجندية:

الأرض .. الأرض.

وانـــبطح بجانـــب حجـــر كبير، وانبطح عوض بجانبه، وانـــبطحت أنـــا بجانب (حوش بطوم) كان بالقرب مني تلك اللحظـــة الرهيبة واستمر إطلاق النار دون انقطاع وكثر تساقط الرصـــاص حولـــنا حتـــى أن أغصان شجرة البطوم التي كنت مختبـــئاً تحتها صارت تتهافت على وحوالي ويئست من النجاة ونطقت بالشهادة وفوضت أمري إلى الله.

بعـــد بـــرهة وقف علينا خمسة من جنود (الباسلياري) وسادسهم ملازم أول.

وعندما وقفنا ننفض غبار الموت عن وجوهنا.

قال أحد الجنود:

- ياللشيطان لم يمت أحد !!!

فقال عاشور:

- ما بالكم تطلقون علينا الرصاص؟

فقال الضابط:

- ماذا قال لكم الإنجليز؟

قلنا جميعاً:

- الإنجليز؟!

وقد دهشنا لذكره الإنجليز لأننا عرفنا أنه يريد أن يلصق بنا تهمة لا مبرر لها عند حكومته إلا القتل. فقال:

- نعم .. الإنجليز.

- وأي انجليز؟

- الذين كانوا معكم.

- كانوا معنا؟

- نعم .. الذين كانوا واقفين معكم، في السيارة المصفحة

وهززنا رؤوسنا علامة النفي مع الاستغراب وقلنا:

- لا.. لا .. ليس ما تقوله صحيحاً.

فقال أحد الجنود:

- نعم .. لقد قال الضابط حقاً. السيارة المصفحة، لقد رأيناها وسمعنا صوتها وهي من ذات (اثنى عشر شينيدر) أليس كذلك يا حضرة الضابط؟

فقال الضابط: نعم.

- قلـــنا: ما كان هذا أبدا .. وأين الإنجليز .. ومن أين يقدر أن يأتي الإنجليز، والأرض ملأ بالقوات الإيطالية.

وغـــضب الضابط من هذه الكلمة ومن تكذيبنا له، وهددنا بالقـــتل بمسدسه الذي ما زال في يده شاهراً له من وقت لآخر، وقال:

- هيا معنا إلى البلاد، وإلا أترككم جثثا هامدة على التراب.

- وما تريد منا في البلاد؟

- لأســـلمكم إلـــى دائرة الكرابيناري فهي التي تعرف كيف تتخذ معكم الإجراءات اللازمة لاتصالكم بالعدو.

فقال عاشور:

- (مـــل وقفه) إن دائرة الكرابيناري أظلم بكثير من هؤلاء الجنود، وسوف يتم تعذيبنا بشدة ويتم تصديق أباطليهم.

وقال عوض:

- ولكــن يا صديقي .. نارهم ولا جنة هؤلاء .. لأن هؤلاء الملاعبــين فــي استطاعتهم قتلنا في هذه البرية ولا يعلم بذلك أحداً.

قلــت: حتــى أن يأخذ بثاركم أو يستخلصكم من قبضتهم لأنهــم لــو يعلم بكم أحد، من الذي يستطيع أن يأخذ بثاركما أو يستخلصكم من قبضتهم، إلا أنهم لا يسألون عما يعقلون.

ســرنا معهــم مجــبورين على أمرنا خوفاً أفواه البنادق المــصوبة إليــنا .. وبيــنما نحن نسير أمامهم في الطريق إذا بطائــرة بريطانية تحلق فوق رؤوسنا على ارتفاع منخفض جداً .. وانبطح الجنود (الشجعان) على الأرض، وبقينا نحن وقوفاً لأننا لم تشغلنا حياتنا.

في تلك اللحظة .. ورفعت الطائرة جناحاً وخفضت الآخر كأنها عرفت حالنا ومرت بسلام .. وقام الجنود المنبطحون على الأرض وقال أحدهم:

- (نوسترو) لنا.

ولكنه لم ينته من هذه الكلمة حتى ألقت الطائرة ما تحمل

من القنابل على حصن (الردويرو) الذي كان عن شمالنا على قمة الجبل.

فقال ذلك الجندي منزعجاً:

- يالشيطان .. انجليزية!

أما نحن .. فقد حمدنا الله على أنها لم تقذفنا، وقلنا لا شك أن الطيار رأف لحالته رأى الجنود يسوقوننا بأسنة الحراب. فعرف أننا من العرب الذين يتمنون له النصر والفوز على الإيطاليين. وأن ما نحن فيه لم يكن إلا انتقاماً منهم . لأنهم يعرفون هذه الأمنية التي تتردد على لسان كل ليبي. ويعرفون كذلك عدواتنا وكراهتنا الساخرة لهم وانتظارنا ليوم انهزامهم .. يوم الخلاص المرتقب .. يوم أن تطهر الأرض منهم ومن حكمهم البغيض وتعود إلى سيادة أهلها الأصليين.

فعفا على أعدائه من أجلنا خوف أن يهلك العدو والصديق الذي تسعى حكومته جاهدة في صداقته ليكون عوناً لها على العدو اللدود.

حقا، إن الشعب الليبي لم يصف قلبه للإيطاليين في يوم من الأيام، ولم يستسلم لحكمهم إلا بعد جهاد ونضال طويلين، ولم

يخـضع لهـم إلا خـضوعاً ظاهرياً .. خضوع الكاره الذي لا يـستطيع المجاهـرة، واسـتأنفنا السير، بعد أن ذهب الفزع عن الجنود الشجعان، وبينما نحن نسير إذ مرّ بنا رجل يدعى إبراهيم عزوز فأوقف وسيق معنا ولا أدري ما هو الذنب الذي ارتكبه.

ولكـنه الظلم الإيطالي السافر .. الظلم الذي له الحق في إلـصاق الـتهم بالأبرياء والغافلين .. الظلم الذي اتخذته إيطاليا ودستور منذ أن احتلت هذه الأرض حتى هذا اليوم.

وعـندما بلغـنا عدوة وادي الحصين الغربية وجدنا في انـتظارنا سيارة ودراجتين ناريتين كانت مع الجنود الملاعين. وركبنا أو بالأحرى، أجبرنا على الركوب، في السيارة، وسارت إحدى الدراجتين أمامنا والأخرى وراءنا كأننا هيئة أركان حرب يخـاف عليها من العدو. أو كأننا ضباط عظام أسرى في ميدان العـدو. وسرنا على هذه الحالة إلى أن وصلنا إلى سراية القيادة الإيطالية، فنزل الضابط وأمرنا بالنزول، وسرنا خلفه يحوط بنا الجـنود المسلحون وقد صوبوا نحونا أفواه البنادق إلى أن دخل بـنا مخـبأ حصيناً مشيد بالأسمنت المسلح السميك. وكان ذلك المخـبأ هو الذي به القيادة ومن تصدر أوامرها، وبه كثير من الكتبة وعدد وافر من خطوط التليفون.

وبعـــد أن تكلم الضابط (الشجاع) مع الضابط المسئول فـــي القـــيادة بـــشأننا أمـــره ضـــابط القيادة أن يتصل بمركز الكرابيناري ويطلعه على الحادث. واتصل (ضابطنا) تليفونياً بالمركز وقال:

بينما كنت في جولة استطلاعية في البرية وبرفقتي عشرة من الجنود، رأيت أربعة من العرب يتحادثون مع سيارة مصفحة إنجليزية، وعندما تقدمت نحوهم فرت السيارة (المصفحة) وبقى العـــرب مكـــانهم فقبضنا عليهم وجئنا بهم، بعد أن انكروا ذلك، وهم الآن في (الكوماندو ، سيتورى) القيادة.

ســـمعت هذا الكلام حرفياً عندما كان يتحدث به الضابط اللعين تليفونياً مع مركز الكرابيناري، وأنا أكاد أتميز من الغيظ بعدم المقدرة على إيقافه وتكذيبه على ما يدعى من أباطيل.

أما الجنود الذين كانوا برفقة الضابط، فقد أخذوا يحدثون الجنود الذين بالقيادة، ويقولون وجدناهم مع العدو فأسرناهم بعد أن فـــر ومـــا أن سمعوا هذا القول الباطل حتى أخذوا يبصقون على وجوهنا قائلين: خائيين ...

ســـبحانك اللهـــم هذا بهتان عظيم .. ما أبلغ هذا الضابط

وعصابته في الأقوال الباطلة .. يالشجاعة الخارقة .. ويالكذب السافر. خمسة جنود وضابط، يهزمون سيارة مصفحة!

.. فمــا أوضــح هــذا البهــتان المبين .. ياطيفة الحق والإنــصاف عــند هؤلاء الحكام .. ويالعدالة الضابط الهام .. يترك السيارة العدو المصفحة تذهب لحال سبيلها سالمة، ويأتي العــرب العزل المساكين، لينتقم منهم ويخوف بهم أهل المدينة الوادعين ..

لقد قيل فيما مضى: إذا لم تستح فافعل ما شئت.

أما في هذا العهد: إذا لم تخف فافعل ما شئت.

إلى مقر الكرابيناري

أمرنا بالركوب في السيارة مرة ثانية، وسارت الدراجتان كمـــا كانت سابقاً إلى أن وصلنا إلى دائرة الكرابيناري، وكانت فـــي ذلك الوقت ملتجئة إلى الجبنجانة، ومتخذة من كهفها الكبير مقر لها وما أن دفعت السيارة أمام باب الكهف حتى خرج علينا جمع كثير من الكربيناري، عرب وإيطاليين لينظروا إلى هؤلاء الأسرى الذين تحدث عنهم الضابط قبل قليل، ويقول أن وجدهم مـــع الإنجليز. كان الضابط الكرابيناري السينيور توميرللي في حملـــة من خرج لينتظر إلينا، وما أن هبطنا من السيارة ونظر إلينا حتى صاح قائلاً:

– إنهم مدنيون .. وإني لأعرفهم حق المعرفة.

وأخذ يشير إلينا واحد بعد واحد:

– هـــذا عاشـــور وهـــو جندي برتبة سرحن، وهذا له دكان بسوق الظلام، وهذا قهوجي بالقرب من ميدان الملكة إلينا، وهذا مزارع بالقرب من المستشفى .. أليس كذلك؟

- قلن نعم سينيور.

- فقال: إني أشك فلي اتصالهم بالعدو.

ونزلت هذه الكلمة برداً وسلاماً على قلوبنا المتأججة خوفاً من الحكم الإيطالي المرير، وحقداً على ذلك الضابط اللئيم.

- إن جميع ما قلته في حقهم صحيح لا غبار عليه بشهادة جميع هؤلاء الجنود الذين كانوا معي وقت القبض عليهم.

ثم التفت نحو الجنود يطلب منهم التأييد (الظالم) فقالوا جميعاً سواء منهم من كان معه وقت الحادث ومن كان مختلفاً مع السيارة.

- صحيح ما قاله حضرة الضابط . يا سيد الكابتن.

وما انتهى أعوانه تأييدهم له، حتى استطرح قائلاً:

لذا يجب على جنابكم الاحتفاظ بهم إلى أن يأتي اليوم الذي يحاكمون فيه أمام محكمة عسكرية، وهي التي لها الحق في إدانتهم أو إخلاء سبيلهم، بعد أن يدرءون عن أنفسهم هذه الحقيقة الثابتة التي أويدها أنا وجنودي.

فالتفت نحونا ضابط الكرابيناري، وقال:

هل صحيح ما يقول هذا الضابط ورفقاؤه؟

- لا .. ما كان هذا أبدا .. إن جميع ما قاله الضابط ورفقاؤه لا أساس له من الصحة. وفي استطاعة جنابكم أن تذهب معنا أو مع من تشاء من الزبطية إلى مكان الحادث وتنظر بنفسك إلى ذلك المكان الذي يزعم السيد الضابط وجنوده أنهم وجدنا فيه مع سيارة انجليزية أو ذلك المكان يا حضرة الكابتن لا يستطيع الإنسان أو حتى الحيوان السير فيه إلا بشق الأنفس كيف يتسنى للسيارة أن تسير فيه، ولا شك أن جنابكم يعرف ذلك المكان جيداً أو يفكر هل في استطاعة أي سيارة أن تدخل إليه.

فقال الضابط اللئيم بغضب وبأقصى شدة صوته:

- أما تستحون الكذب .. لقد شاهدت وجنودي السيارة واطلقنا عليها النيران .. ولكنها انهزمت قبل أن نصل إلى المكان الذي كنتم وقوفاً فيه؟

- إن هذا غير صحيح.

- لا ينفع الجدال معكم في هذه الساعة .. ولكن سيأتي اليوم الذي تعترفون فيه .. ولذا يجب على دائرة الكرابيناري أن تحتفظ بكم إلى ذلك اليوم.

ثم التفت نحو ضابط المركز وقال:

- اســمحوا لي يا سيدي الكابتن بالذهاب فإني ورائي عملاً عــسكرياً ثم تأخر إلى الوراء وحيا الضابط تحية عسكرية وسار نحو سيارته وتبعه جنوده الأثمون ...

كــان ضــابط الكرابيناري يعرف جيداً الساحل الأقصى لكثــرة مــا ذهب إليه قبل إعلان الحرب لأجل الصيد والقنص، كمــا يعــرف أن قولنا الحق، وأن ما قاله الضابط وعصابته لا أساس له من الصحة، لو أن الضابط (المغفل) قال وجدتهم مع جــنود جواسيــسي للعدو لجاز ذلك. ولكن .. لا يفلح الظالمون وثانــيهما: أن القــوات الإنجليــزية مــا زالــت داخل الأرض المــصرية.. ولنفــرض أن مــن المحتمل في استطاعة رجال (الكــوماندوس) البريطانــي في القدوم بالسيارة إلى ضواحي درنـــة، فــلا يتسنى للسيارة أن نصل إلى الساحل الشرقي الذي لــيس لـــه أي طريق تتصل به، وهو محصور بين أدوية وبحر وجبال يحيط بها إلى منطقة الفتائح الملأى بالجنود الإيطاليين.

ولكــن .. هــل يكذب ضابط إيطالي وجنوده، ويصدقون العرب ويطلق سبيلهم؟

إلـــى الـسـجـــن

نقـــض المحكمة الإيطالية أو بكلمة أصح الظلم السافر أن يـــساق العـــرب المساكين المظلومون إلى السجن لأجل التحري والمحاكمـــة إرضـــاء لـــذلك الضابط اللئيم الذي تمسك بوجوب سجننا ومحاكمتنا أما محكمة عسكرية وإدانتنا بشهادة جنوده، ثم الإعدام بتهمة الاتصال بالعدو.

يـــا ويـــل الـــشعب المغلـــوب من دسائس حكامه الطغاة المستبدين الذين ينفذون أوامرهم دون إثبات ولا براهين .. وما أكثـــر الـــتهم التي حاكت خيوطها الأيادي الإيطالية تلك الخيوط التـــي راح ضحيتها مئات الأرواح البريئة أن هذا الضابط اللئيم يـــريد أن يعيد معنا أفعال أمثاله من الضباط الذين كانوا من قبل يـــسوقون الأهالـــي بالعـــشرات كما تساق الأغنام إلى المجزرة ويطلقـــون عليهم الرصاص بدون محكمة لا لذنب جنوده ولكن فكـــرة الـــضباط اقتضت ذلك، فأصدروا أمر الإعدام كتسلية أو كوسيلة لتنفيذ خطة الإبادة والإفناء.

مكثـــنا بـــسجن مركز الكرابيناري أكثر من ثلاثين يوماً كانـــت المعارك خلالها مشتدة بين الإيطاليين والإنجليز. واحتل الإنجليـــز مـــساعد والبردي وطبرق وعين الغزالة .. واشتدت الغازات الجوية البريطانية على درنة.

وفـــي ذات يوم أغارت الطائرات البريطانية على المدينة وألقت القنابل على مركز الكرابيناري فوقفت إحدى القنابل داخل ســـاحة المركز وقتلت ثلاثة جمال كانت به. وقعت أخرى على البناية التي تلي المركز من الجهة الغربية ملك بلدية فأحدثت بها أضـــرارًا جـــسيمة واهتـــزت الزنـــزانة التي تحن بها من شدة الانفجـــار وسقط على رؤسنا (تلبييس) السقف ونطقنا بالشهادة ويـــسئنا مـــن الحياة، وأخذنا نطرق بشدة باب الزنزانة بالنعال ونـــصرخ طالبين أن يفتح علينا باب، ولكن ليس من مجيب لأن الجمـــيع داخل المخبأ وبعد انتهاء الغارة فتح علينا الباب لينظر إلى حالنا، هل نحن أحياء أم أموات.

وعندما أراد الزبطية أن يغلق علينا الباب مرة أخرى قمنا نحوه وتشبثنا بالباب ولم نمكنه من إغلاقه لأننا أقوى منه وأكثر عدداً، وقلنا له:

ـ لن نمكنك من إغلاق الباب إلا ونحن جثث هامدة. وذهب

الـــزبطية إلـــى البريجديـــر المسئول عن إدارة المركز وأعلمـــه بتمردنا عليه، وأتى البريجدير يسأل عن الخبر، فـــروينا لـــه ما حدث داريناه ماحباب سقف الزنزانة من شدة الانفجار، وقلنا:

- أما أن يترك باب الزنزانة مفتوحاً لنتمكن من الدخول إلى المخـــبأ وقت الغارة وإلا فإننا مضطرون لمقاومة إغلاق الـــباب علينـــا ولـــو أدى ذلك إلى قتلنا جميعاً برصاص الكـــرابيناري فـــي هـــذه الـــساعة، لأنـــنا نفصل الموت بالرصاص على الموت بقنابل الطائرات، لأن الأول يترك أجـــسامنا ســـليمة، أمـــا الثاني يجعلها أشلاء مبعثرة مع الحجارة والتراب.

وإننا لنرجوا من حضرة البريجدير أن لا يغضب من هذا الكـــلام لأن مـــا قلناه يعد دفاعاً عن النفس، والدفاع عن النفس مكرمة يحبذها الذين يحترمون القانون ونحن قد يئسنا من النجاة بأنفـــسنا وقـــت الغـــارة، وليس من العدالة أن ندخل جميعاً إلى المخبأ وقت الغارة بينما نحن عرضة القنابل البريطانية.

سكت البريجدير قليلاً يفكر ثم التفت نحو الزبطية، وقال:

- لا نغلق الباب عليهم بعد الآن، واصحبهم إلى داخل المخبأ عندما تأتي أي غارة.

- شكراً لك سينيور بريجدير، ألف شكر.

قلنا هذا بصوت واحد.

امتثل الزبطية للأمر .. ودخلنا إلى المخبأ مباشرة بدل الزنزانة ومكثنا ليل نهار .. وأخذت الأيام تمر ببطء وكأن مرورها قد خفف عنا كثيراً مما كنا فيه من قلق وخوف عظيمين، واطمأننا بعض الاطمئنان عن ذي قبل بمكوثنا داخل المخبأ.

وفي ذات يوم قدم علينا البريجدير أم الرزم ومن معه من الزيطية هاربين، وقال:

- إن العدو شوهد عند خليج البمبة.

وفي اليوم الثاني أمرنا البريجدير من الصباح الباكر أن نحمل جميع ملفات مكتب المركز إلى غرفة صغيرة منفردة في أقصى زاوية المركز من الجهة الشرقية الشمالية ليشعل فيها النار وأخذنا في نقل تلك الملفات .. ملفات الظلم والاضطهاد، المحتوية على أعمال الكرابيناري المستبدة الوحشة منذ الاحتلال

الإيطالـــي البغيض عام 1911 إلى عام 1941 تلك الملفات التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من الأرواح البريئة.

هـــذه الملفات الملأى بمخازن إيطاليا، من تقتيل وتعذيب وضـــغط علـــى الخرية، وعبث بالنفوس والأرواح، واغتصاب الأمـــلاك، ونهـــب الأمـــوال، وقضاء على الأخلاق الإسلامية والعقائد العربية، وتنفيذ ما يرأ تنفيذه بالحديد والنار بدل العدالة والقانون.

هـــذه الملفـــات المـــلأ بأسماء المسجونين ظلماً وعدواناً لأســـباب تافهة وشابات كاذبة لا ظل لها من الحقيقة والضمير، وإنمـــا يقصد بها القضاء على هذه الفئة القليلة من العرب الذين أوقفهم سوء الطالع تحت دولة لا ترحم ولا تلين ... ولم ننته من نقـــل تلـــك الملفات المخزية إلا قبل غروب شمس اليوم الثاني بقليل وكنا نعمل نحن الأربعة بجد ونشاط يذكيهما فرح عظيم لا حد له من السرور والابتهاج بزوال دولة الظلم والاضطهاد من هذه الأرض المقدسة ...

وقد عثرت بين تلك الملفات على رزمة من الكتب العربية مـــربوط بخيط متين وقد كتب عليها بالإيطالية ـ غير مسرح ـ

وعـــندما فككــت رباطهـــا وقرأت أسماؤها وجدت أنها جميعاً متساوية الأسماء .. تاريخ طرابلس الغرب.

المـــسمى الـــتذكار فـــيمن تلك طرابلس وما كان بها من الأخـــبار فأخذتني حمى الاطلاع فخاطرت بنفسي وأخذت منها خمـــسة أعداد ووضعتها بين جلدي وثيابي، ثم ذهبت إلى المخبأ وخبأتها داخل فراشي الذي أنام عليه.

إن هـــذه الكتب قد صودرت من قبل سلطان الكرابيناري كمـــا صـــودر الكثير أمثالها لأن الحكومة ترى مثل هذه الكتب وعيا للقومية العربية التي تسعى جاهدة في طمسها وإبادتها ...

فالحكـــومة الإيطالية قد فعلت في هذه البقعة الصغيرة من الـــوطن العربي الأكبر، الأفاعيل التي يندى لها الجبين وتذوب لها القلوب الأبية هباء ...

ســـعت حكـــومة إيطاليا الأثمة الطاغية إلى تحطيم الكيان الليبـــي تحطيماً فظيعًا في جميع مرافق حياته فهي باعدت بينه وبين أشقائه في البلاد العربية الأخرى ..

وهـــي أبـــادت بـــسلاحها ومعتقلاتها وسجونها القومية العربية في كل ليبي.

حاربـــتها فـــي دخول الكتب العربية والجرائد والمجلات الأدبـــية .. حاربتها في قراءة الفتوحات الإسلامية بقصد طمس روح الـــنخوة والـــشجاعة العربية .. حاربتها في المدارس التي أنـــشأتها فأثـــرت لغـــتها علـــى اللغة العربية تأثيرًا بلغ منتهى الاســـتبداد الفكـــري .. وشـــددت الرقابة على الرسائل الواردة والصادرة حتى أصبح الشعب كالمسجون داخل بلاده ....

ولـــم تتـــرك ســـبيلاً يصل من ذا الشعب إلى إخوانه في العـــروبة والإسلام إلا قطعته خشية أن تتسرب أعمالها الوحشية إلى الخارج، وبقية محو الدين الإسلامي من هذا الوطن المنكود فحاولـــت جاهدة بسط جنينها على المواطنين ولكنها لاقت عناداً وإصـــراراً وإبـــاء وشمما .. لاقت نفوساً ما أنت بشيء إيمانها بـــسلطان الإســـلام ولا أثـــرت اعتـــناق مبدأ غير مبادئ الدين الحنين....

فقد استبد الإيطاليون بهذه الفئة العربية الكريمة في جميع النواحـــي الـــسياسية والأدبـــية والمعنوية وجدوا واجتهدوا في حـــرمانها حقوقها الوطنية فغيروا معالم البلاد العربية الإسلامية إلـــى معـــالم إيطالـــية وبدلـــوا أسماء القرى وأجلوا عن أهلها الأصليين، وأحلوا محلهم مزراعيين إيطاليين جلبوهم من إيطاليا

لهـــذا الغرض وضيقوا على العرب في حياتهم العامة فأذاقوهم مـــن الهـــوان والذل أنواعاً يعجز عن حملها أي إنسان سواهم، تحـــت سيطرة السيف ورهبة القانون الظالم وحالوا بينهم وبين جمـــيع مـــرافق الحـــياة وأعطـــوها للإيطاليين، وبذلك أصبح المواطـــنون عبـــيداً أرقـــاء يخدمون بالآجر الزهيد للغاصبين الإيطاليين ...

وفـــي الـــيوم الثانـــي من انتهائها من نقل ملفات الخزى والعـــار جـــئ لنا بجنديين أسيرين من جنود القوات البريطانية وجعـــل معـــنا داخل المخبأ تحت الحراسة القوية أخذ الأسران يتكلمان بلغتهما الإنجليزية ويشيران بأيديهما إلى الحراس الذين لـــم يعـــرف أي مـــنهم ما يبغيان وأخير فك أحدهما سير لباسه وجلـــس يعبـــر عن أنه يريد إزالة الضرورة وعندما رأى أحد الحراس ذلك قال:

- لعن الله الحرب.

ولـــولا الخـــوف مما كان حاضراً من الجنود الإيطاليين لقـــال، لعن الله من تسبب فيها أي موسوليني وحزبه الفاشستي وعـــندما ســـأله أحـــد الجنود عن بكائه قال وهو ما زال ينشج بالبكاء:

- كلنا أخوة في الإنسانية، ولكل منا أسرة ترتجي اليوم الذي يعـــود فيه إليها سالماً ولكنها الحرب .. الحرب هي التي جعلتنا يقتل ويأسر بعضنا البعض؟

ثم كف عن البكاء وتوقفت الدموع من عينيه وأخذ الكلام يتدفق من فمه بسرعة وقال:

- نعـــم أيهـــا الـــرفاق الحرب هي التي تورث البغضاء وتقطـــع صلة العطف والرحمة بين بني الإنسان وتدفعهم للقتل والقسوة والعدوان .. الحرب التي ما نزلت بساحة قوم إلا أبدلت فـــرحهم حـــزناً واطمئنانهم عباء وراحتهم عناء .. الحرب التي تغنـــي الرجال وترمل النساء وتيتم الأبناء وتقض على الأبرياء، وتهدم المنازل والقصور وتهلك الحرث والنسل، وتأتي بالخراب والـــدمار .. لمـــاذا هـــذه الحـــرب الطاحنة والمأساة الفاجعة، والمـــشاحنات الظالمـــة الآثمـــة؟ .. لمـــاذا يسفك بعضنا دماء البعض؟.. لماذا نتصارع إلام نتصارع كواسر الغاب؟..

ألـــم يـــنه السيد المسيح عن ارتكاب الظلم وقتل الإنسان، وأمـــر بالعدل والمحبة بين الإنسان وأخيه الإنسان، ودعى إلى السلام في الأرض وبذل الخير والمحبة. ألم يقل أحبوا أعداءكم

واعملـــوا الخيـــر لمن يبغضكم؟ .. أيها الرفاق، إنني أرى أننا بعيدون كل البعد عن هذه التعاليم السمحاء.

وسكت ذلك الجندي أو بالأحرى الخطيب، ولم يستطع أي مـــن الحراس أن يرد عليه بكلمة وكأنما لجموا بلجام أما نحن، فقـــد عظم ذلك الجندي في نفوسنا وعجبنا لما نطق به من درر الكلام. وفرحنا فرحاً عظيماً، لأن القدوم بذلك الإسير بيّن لنا أن القـــوات البريطانية أصبحت بقرب من المدينة، وأنها أما غدا أو بعـــد غـــد ســـتحتل المديـــنة وســـيفرج عنا رغم أنف هؤلاء الكرابيناري وحكومتهم الظالمة المستبدة.

يـوم مـن الحـريـة

وفي ذات يوم، كنا جلوساً قبل الغروب على سطح المخبأ ننتظر من بعيد إلى مدافع طابية (العصار) وهي تطلق قذائفها الثقـيلة بعيدة المرمى، وإلى لهيب النار وهو يخرج من أفواها قـبل أن نـسمع صوت انطلاق القذيفة، إذا قدم إلينا البريجدير وجلس إلى جانبنا وأخذ ينظر إلى ما ننظر إليه فقلنا له:

- إن هـذه الـبطارية لم تسكت من صباح أمس، لأن العدو أصبح بالقرب من الفتائح.

قلنا بعزم مكتوم:

- بقرب من الفتائح؟ .. وصل إلى هذا المكان؟

- بلغ إلى أقرب منه، وأخشى أن يدخل المدينة هذا المساء.

- ولكن العدو لا يستطيع دخول المدينة لأنها حصينه بالجبال ويحـيط بها عدة بطاريات من المدافع الثقيلة، والفتائح ملأ بالجـنود الـذين تؤازرهم الدبابات، فلا تعتقدان أن العدو يستطيع دخول المدينة مع وجود هذه التحصينات.

- نعـــم .. إن المديـــنة حــصينة بالجبال ولدينا قوات كثيرة بالفــتائح ولكـــن هؤلاء الشياطين (يعني جنود الإنجليز) لم يمنعهم عن التقدم كثرة الجنود وضرب المدافع الضخمة لا المدافــع الرشاشة ولا الطائرات المنقضة بنيرانها وإذا تعـــذر على العدو فتح المدينة فسيطوقها بجزء من جنوده الكثيـــرة ويتقدم نحو بنغازي دون أن يضعف التطرق من قـــواته العديدة لأن طريق مرتوبة المتصلة بالقبة قد جعلت من مدينة غير استراتيجية.

وهـــذه الفكرة (فكرة التطويق) قد جعلتني أشعر بأننا جميعاً أنا وأنتم أسرى، ولا ينبغي أن أتحكم في سجنكم من الآن، لأنـــي أعـــد نفسي غير مسئول عن إدارة المركز وشئونه وأنـــا شبه السجين ومن الآن أنتم أحرار فإن أردتم مغادرة المركز فأنا لا أمنعكم من مغادرته.

وأخـــذ يلعن ويشتم في الإنجليز، وأخذنا نساعده في الشتم والسب لهذا العدو المحتل الذي يريد أن يدخل المدينة عنوة ولكن قلوبـــنا كـــادت تطفـــح سروراً لقدوم العدو ولقول البريجدير أنتم أحـــرار. إلا وتـــوارت الشمس في مغيبها. انتهى البريجدير من حديـــثه اللين، واجتماعه الوديع الذي لم نعهده من قبل، وغادرنا

إلى حيث لم نعلم. وكنا منذ ليالي عديدة بنيت بالمركز دون رقابة وحراس ولكن الخوف لأنه أصبح في عداد الأسرى والمسجونين، وجعل لنا الحرية في البقاء والنصر فلا نغادر المركز والإرهاب همـــا اللذان كانا لنا بمثابة الحرس الشديد أما الآن وقد رأينا بدء انهيار السلطة وتحطيم الإرهاب وسمعنا من أحد الطغاة أنه لم يعد مـــسئولاً عـــن المركـــز وعن سجننا، ولا نتركه ينفق فيه البوم والغراب، ونذهب إلى لقاء الأحبة والأصحاب؟

حمل كل منا عباءته ووسادته، وخرجنا من المركز دون أن يعـــرض ســـبيلنا أحد .. خرجنا من ذلك الحصن الذي كان يصعب على السجين الخروج منه إلا بعد أوامر وتحريات شديدة يخـــرج بعدها إلى السجن الكبير ليقض فيه السنين العديدة تحت الـــشدة والإرهـــاب والانـــتقام، وإلى أعواد المشانق وصناديق الإعـــدام .. خـــرجنا من ذلك الحصن الشامخ الذي كان حراسه مدججـــين بالحـــراب والسلاح ليل نهار يرعبون ويخوفون من بداخله وخارجه. خرجنا منه وتركناه يخيم عليه السكون كسكون المقابر الموحشة، وقد دلنا ذلك على انهيار ونهاية حماته الطغاة المـــستبدين الـــذين بثوا الرعب والفزع في قلوب أبناء هذا البلد الأمين منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض الطيبة الطاهرة.

خرجنا إلى شوارع خالية من المارة بعد أن كانت مزدحمة بالجماعة والأفراد، موحشة بعد الأنس والطرب والابتهاج ففد ذهب الظلام بأجمل ألوانها وورونق حدائقها وأشجارها وسرنا ونحن نلتفت ذات اليمين وذات الشمال رأفة ورحمة لما نزل بها من الدمار والوحشة والأهوال إلى أن بلغنا حي المغار حيث لجأ أهلنا إليه بعد قدومهم من الساحل بعد القبض علينا.

وعندما سجى الليل وأطبق ظلامه على المدينة، أخذت الحكومة المنهارة في إشعال النيران في جميع مستودعات التموين والملابس الحكومية. وكانت ليلة مدلهمة والبلاد لابسة حلة الظلام الدامس، وكان ضوء النيران المشتعلة في عدة أنحاء المدينة يطرد تلك الظلمة المخيفة، ولكنه يزيد الناس خوفاً وهلعاً لأنهم يخشون أن تمتد ألسنة النيران إلى البيوت المجاورة للمخازن ومنها إلى ريفية المدينة الخالية من السكان وكان صوت المدافع المدافعة عن المدينة يشق سكون الليل بين الحين والآخر ويبعث في النفوس ما يهزها ويرعدها وعندما بدأ الصباح، وأخذت الشمس تطرد بنورها ظلام الليل المخيف وروعته، كما يطرد الإنجليز بدباباتهم الجيش الإيطالي، وكلاهما منهزم نحو الغرب .. الإيطاليين وللظلام.

وارتفعت الشمس وارتفع معها صياح الناس السالبة لدور الحكـومة المنهزمة، وفرحنا وفرح الناس جميعاً بالخلاص من الحكـومة الغاشمة والحكم الاستبدادي اللذين سيطرا على البلاد أكثر من ثلاثين عاماً.

وأخـذ الناس في ذلك اليوم السعيد يستريحون من الضيق الذي كان مخيماً عليهم، ويتنفسون نفس الحرية مع نسيم الصباح العليل، وتجلت الشمس مشرقة باسمة تشارك الشعب أفراحه في ذلك اليوم السعيد.

ذلك اليوم الذي كان يتمنى كل وطني أن يراه، ولا يبالي إذا رآه أن يمـوت بعـده، وقـد جلّـت عن وطنه شرادم الذل والعـبودية والاضـطهاد، وانزاحت عن القيود والأغلال، وأخذ يلتمس طريق الحرية والسعادة والرقي، ليلحق بركب الحضارة والـتقدم والازدهـار فـي ظل حكومة وطنية يرغد في حماها بالأمن والراحة والسلام.

وانتهـى ذلـك الـيوم، وبتناوبات الناس جميعاً في فرح وسـرور وابـتهاج وصـبور بانهزام الغاصب الذي كان يخنق الشعب ويضطهده ويملؤه روعاً وخوفًا ورعباً ويمنع عنه طريق الحرية والاستقلال.

خــوف ويــأس

وفــي الــصباح، بيــنما كنا نتحدث عن انهزام الحكومة الظالمـــة وما قاسيناه في السجن من العذاب والظلم والاضطهاد، وقلنا بقلوب ملؤها الفرح والسرور:

إلـــى غيــر رجعة يا دولة الظلم والاستبداد، وإذ بطارق يطــرق باب المنزل، وعندما خرج عاشور لينظر إلى الطارق، فــإذا بــه بجده أحد الزبطية الذين كانوا يحرسوننا في المركز، وعندما سأله عاشور ماذا تريد، قال:

- إن البريجدير يدعوكم إلى المركز.

ورجــع عاشــور وأعلمــنا بالخبر الأسود، وخرجنا من المنزل وسرنا معه بنفوس ملؤها الحزن والألم والحقد على تلك الحكــومة الظالمة التي تتشبث بالظلم والغدر حتى آخر أنفاسها، وقلنا للزبطية:

- ما زال البريجدير موجوداً؟

- نعم.

- وماذا يريد منا بعد أن أطلق سبيلنا؟

- لا أدري .. وإنما اعتقد أن يسألكم بعض الأسئلة ثم ترجعون.

- (ما فيش خوف)؟

- (والخوف من أين .. الحكومة نائضه .. منهزمة)

وصلنا إلى المركز .. هل تدري ماذا وجدنا؟ .. طبعا. لا .. وجدنا سيارة في انتظارنا، وبعد أن سئلنا عن رفيقنا إبراهيم الذي أنكرنا معرفة محل إقامته، أمرنا بالركوب فيها تحت حراسة أربعة من الجنود الكرابيناري المسلحين .. طبعا.

وتحركت السيارة وأخذت في السير نحو الغرب، ويئسنا من الحياة، ودار بخلدنا أنهم سائرون بنا إلى الساحل الغربي لإعدامنا رمياً بالرصاص بناء على طلب ذلك الملازم اللعين بعد أن تعذر على الحكومة انعقاد محكمة عسكرية لمحاكمتنا بسبب انشغالها بالقوات الإنجليزية التي أصبحت على الأبواب، فلا داعي إذن للمحاكمة والشهود .. ومن هم الشهود؟ أليسوا أولئك الجنود السفاحين الذين يسعون إلى إرضاء ضابطهم وتصديقه

فـــيما يدعى ويقول؟ .. أو ليس هذا العمل هو الذي دأبت عليه هـــذه الحكـــومة منذ أن احتلت هذه الأرض، حيث كانت تسوق الأهالي بالعشرات كما تساق الأغنام إلى المجزرة وتطلق عليهم الرصاص بدون محاكمة أو شهود؟

ألـــيس حكمهـــا مبنـــى على الغدر والخيانة وسفك الدماء وســـجن الأبـــرياء منذ وطئت أقدامها النجسة هذه الأرض إلى اليوم؟.. أليس إقامة معتقلات العقيلة والبريقة وموت المواطنين فـــيها بالمـــئات من خطة وسياسة هذه الدولة الخائنة؟ .. أليس جـــنودها هم الذين كثيراً ما أطلقوا الرصاص على من يمر بهم منفرداً من المواطنين؟

أبعد كل هذه الأعمال المخزية تتورع في اغتيال ثلاثة من العرب شهد عليهم بالخيانة أحد الضباط العظام وثله من الجنود الكـــرام، وهـــي التي كانت تصب نيران مدافعها الرشاشة على الأمنـــين الوادعـــين مـــن المواطنـــين لأتفه الأسباب؟.. أليس اســـتدعاؤنا وإجـــبارنا على الركوب مع أربعة من الكرابيناري المـــسلحين دليلاً واضحاً على سوء نيتها وتنفيذ مآربها إرضاء لذلك الضابط اللئيم؟

اللهـــم أنـــزل عليـــنا صبرك وثبت قلوبنا وتوفنا شهداء مسملين .. ونطقنا بالشهادة ويئسنا من الحياة ..

ومـــرت لحظـــات ولحظـــات، وكل هذه اللحظات مليئة بالخـــوف واليأس وعدم الثقة في الحراس الذين كانوا يحرسوننا وبأيـــديهم النـــبادق المـــلأ بالرصاص وعلى جنوبهم مسدساتهم ســـريعة الطلقات .. وأخذنا في تلك اللحظات الرهيبة تتطلع إلى السائق حيث يقف عن السير ويأمرنا بالنزول لتنفيذ مأربهم الذي من أجله دعينا بعد إطلاق السراح.

واجـــتازت بـــنا الـــسيارة الساحل، وأخذت تصعد العقبة واطمأنـــنا بعـــض الشيء، وأخذ بعضنا ينظر إلى بعض وكأنما يقول: أين المصير لقد انتهى الساحل، وها هي العقبة على وشك الانتهاء وسطعت بأرق أمل في الحياة من وراء ظلمة الهواجس الحالكـــة المحـــيطة بنا ولكنها بارقة ضعيفة لا تكاد تبين ولكننا أخـــذنا ننظر إليها نظرة غريق نحو نجم لامع أبصر به طرف الـــسماء فظـــن أنه نور يهتدي به إلى شاطئ السلامة والراحة والأمانـــة واجتازت السيارة العقبة.. ودب في نفوسنا أمل النجاة من الموت بالإعدام وتنفسنا الصعداء.

وأخـــذ ذلك الأمل يعظم شيئاً فشيئاً ويمحو من ظلام ذلك

الـــيأس الذي خيم على نفوسنا منذ أن أجبرنا على الركوب في السيارة لحراسة الكرابيناري المسلحين.

وواصـــلت الـــسيارة سيرها إلى أن وصلت بنا القبة التي وجدناها غاضبة بالهرج والمرج .. وجدناها أشبه ما تكون يوم القيامة الذي يقول في حقه الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

زوابع من العجاج الثائر إلى عناق السماء يختلط به دخان كثيف يتصاعد من عدة مخازن تلتهمها النيران سيارات مصفحة ودبابات مدرعة، وجنود شقت المرؤوس، غبر اللباس والوجوه، ملقـــى الفؤاد، مرتعش الأوصال، يدخلون القرية ويخرجون، لا نظام ولا قانون، عليهم علامة الحنق ودليل الانهزام .. يشعلون الـــنار فـــي مخازن المؤن والملبس بعد أن كانوا يفترون على أنفـــسهم في الطعام والملبس ويضرمون النار في الذخيرة التي أعدوها لحماية أنفسهم في الطعام والملبس.

إلهـــي .. لك الحمد والنعماء، ما أجمل حكمتك وما أعظم قدرتك، فتعز من تشاء وتذل من تشاء فها هي الحكومة الطاغية

المتجبـرة سـالبة الحقـوق وممتصة الأرزاق وخانقة الحريات وظالمة الأبرياء، فزعة ومذعورة خائفة تترقب ساعة الانهزام، تاركـة الأرض التـي اغتـصبتها ظانة أنها مانعتها حصونها وجـنودها فأتاهـا مـا لم تكن تعلم فأخذت تتهيأ لترك الأرض لأصحابها الأصليين صاغرة ذليلة صغيرة ورد كيدها في نحرها أنـك يـارب على كل شيء قدير تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملـك ممـن تـشاء .. وقفت بنا السيارة أمام المراكز وأمرنا بالنـزول والدخـول إلـيه، وهـناك وجدنا ضابط الكرابيناري السينيور توميزيللي، وما أن رانا حتى سلم علنيا وقال:

- كيف الحال؟

- كما ترى.

- الصبر.

مكثـنا فـي فناء المركز لا نعلم ماذا يخبئه لنا الغيب في مجاهله، وكنا أقرب من نيران اليأس إلى جدنات الأمل، تتقاذ فنا الهـواجس وتتراما بنا الأوهام، وزادنا أمسى خوفاً ما ننظر إليه من الخطر المحدق بنا والاضطراب الظاهر على القرية ومنظر الجنود بسيارتهم ومدافعهم ورشاشاتهم ودباباتهم وما يثيرون من

غبار يتصاعد إلى عناق السماء وما هم فيه من ارتباك وفوضى وقلق. فقلت لصاحبي:

- يلهو المكان أن حياتنا الآن أصبحت في خطر عظيم ..

إذا دهـم الإنجليـز هـذه القـرية علـى حين غرة وفر الإيطاليون فإننا سنكون جثثنا هامدة قبل انهزامهم؟

لا تعجل في الحكم فيما ليس لك به علم ..

- الحـق أننـي في رعب شديد من هذه الورطة التي وقعنا فيها..

(مكـا لاه يامرت بوى لوله اللي تخنق وتنفس). لأعلم هل شر أريد بنا أم أراد بنا رشدا؟

- كـل شـيء بقـضاء وقدر .. أليس من ساعة كنا نحسب أنفـسنا في عداد الأموات .. وها نحن الآن اجتزنا ما كنا نخشاه .. ولعله سبحانه وتعالى ينجينا مما ننحن فيه الآن، إنـه سـميع مجيب وأنه يقول: فإن مع العسر يسرا أم مع العسر يسرا.

- أعـرف هـذا .. ولكن يا صديقي من أين لك النجاة هل تعـتقد أنهـم يحملونك إلى مكان آخر أكثر أمنا في سيارة

خصوصية كالتي حملتك إلى هنا، وهم في أشد الحاجة إليها كوسيلة لسرعة الانهزام .. أم يخلون سبيلك، وهم الذين جاءوا بك إلى هنا لحاجة في أنفسهم لا يعلمها إلا الله ... ولنفرض أنهم يخلون سبيلنا، فما هو مصيرنا وسط هؤلاء الجنود الحنقين على العرب لعدواتهم السافرة لهم، فهم بدون شك لا تستقر أعينهم علينا حتى يهددوننا بالرصاص.

- دع هذه الأفكار السوداء جانباً يا رفيقي ولا تجزع بلا موجب، وعسى أن يكون مجيئنا هنا خيراً من تلك الزنزانة التي كنا فيها عرضة للقنابل الطائرات وغضب البريجدير، واعتقد أنه ما بين غمضة عين وانتباهتها بغير الله تعالى من حال إلى حال.

- لقد سلكت أمري إلى الله. وسأنتظر في صبر ما يأتي به القدر.

في الطريق إلى السجن

كان الوقت بين العصر والمغرب حين وقفت أمام المركز سيارتان كبيرتان مملوءتان برجال من العرب يحيط بهم حرس كبير مسلح من الكرابيناري عرب وإيطاليين.

وما أن رأيناهم مكاننا وخرجنا نحوهم كأنما تجذبنا نحوهم قوة مغناطيسية، ولا غرابة في ذلك فكل جنس لجنسه إلف وعندما سألناهم عن حالهم وأين سائرون بهم، قالوا:

- إلى سجن بنغازي.

قلت لرفيقي:

- الأفضل أن نركب معهم متى بدون إذن من المركز لأني في خوف ورعب شديدين من هذا المركز الموحش البغيض المضطرب، ومنذ أن جئ بنا في الصباح لم يكلمنا أحد ولم يسأل عنا أحد والمثل يقول: (حط رأسك بين الروس وقل يا قطاع الروس).

ركبنا في إحدى السيارتين بدون إذن من المركز الذي نحن في عهدته، بدون إذن من حرس السيارة لأنهم جميعاً دخلوا إلى المركز، وأخفينا أنفسنا بين الركاب، وبعد برهة سمعنا أحد الزبطية ينادي:

- أين الجماعة الذي جيء بهم من قبل؟

- قلنا: ها نحن هنا.

- امكثوا في أماكنكم.

ثم قدم بريجدير لقبه وبصحبيته الكرابيناري المسئول عما في السيارتين، وبعد أن طلب منا البريجدير الوقوف قال للمسئول:

- هؤلاء هم الثلاثة الذين تحدث عنهم الكابتن وأمر بحملهم مع المساجين إلى بنغازي.

فرحنا عندما سمعنا ذلك، لأننا كنا مصممين على أن لا تنزل من السيارة ولو أدى ذلك إلى الضرب بالسياط أو القتل بالرصاص لأننا نرى شبح الموت مخيماً داخل المركز وسائر نواحي القرية ..

وتحركت السيارتان نحو الغرب، ودخل إلى قلوبنا

الاطمئـــنان حيث وجدنا أنفسنا بين أخواتنا وأبناء بلدتنا وحمدنا الله على ذلك وسألنا عن سبب بعثهم إلى سجن بنغازي فقالوا:

- عـــندما أخـــذت الحكومة المنهزمة في إشعال النيران في الـــدور والمخـــازن، أخـــذ البعض منا في أخذ الأثاث من محلات الحكومة الخالية أغاضها ذلك لأنها تفضل أن تأكل النيـــران الأثـــاث علـــى أن يأخذه العرب فأمسك الجنود يـــضربون ويقبضون على كل من وجوده سواء في ذلك الفاعـــل والبـــريء، وأكثـــر هؤلاء الركاب ألقي عليهم القـــبض ظلماً وعدواناً إلا القليل منهم قبض عليهم وهم داخل (البرقو) الهوتيل.

وصـــلنا قـــبل الأصيل إلى ملتقى شحات، وبعد الغروب بقلـــيل مررنا بضريح سيدي رافع بن ثابت الأنصاري ورفعت الأكفـــف بالـــدعاء إلـــى الله أن ينجينا مما نحن فيه، وأن يريح حكـــومة الظلـــم والاضطهاد عن الوطن سريعاً ومررنا بوادي الكـــوف وكان معززاً بقوة كبيرة من الجنود لحراسة الجسر أو بكلمـــة أصح لإشعال النار في الفتيل المتصل باللغم المعد لنسف الجسر بعرقلة تقدم القوات البريطانية التي كانت تكتسح القوات

الإيطالــية من الأراضي الشرقية الليبية، والتي ينتظرون قدومها بين الحين والآخر متعقبة قواتهم المنهزمة.

وكانــت تلــك اللــيلة سوداء مدلهمة حجبت فيها السحب الكثيفة القاتمة صفحة السماء وما دونها من كواكب ونجوم حتى أنــنا لم نرى إلا قليلاً مما كان حولنا، وكان المطر يتساقط قليلاً بين الفينة والفينة وعندما اجتزنا الوادي وانبسطت الأرض قليلاً ووقفــت الــسيارتان وذلــك لأن أكثر الركاب وبالأحرى أكثر المــساجين طلــبوا إيقافهما لإزالة الضرورة والبول ونزل أولاً الحراس على هيئة سياج يحيط بالمساجين خوفاً أن ينهزم أحد، وبعــد برهة ركب من نزل وبدأ في عد الجميع خوفاً أن يتخلف أحد وعند العد زاد شخص كيف؟

وأعــيد العد مثنى وثلاث ورباع، فكان في كل مرة يزيد واحــد عن العد المعروف والمسجل في درنة والقبة وهو خمسة وستون شخصاً .. كيف؟ ومن أين هذا الشخص الزائد؟

وكثــر الكــلام واللغــط عن هذا الشخص الزائد، وطلب الكــرابيناري المــسئول وهــو قابع في الكابينة من شدة البرد، التحــري في العد والسرعة في معرفة هذا الطفيلي وطرده من هذه (النزهة) وتفقد أحد الزبطية السيارة التي نحن فيها جيداً،

فوقع نظره على شخص قد لف رأسه وكتفيه في (شوال) من شـــدة البـــرد لأنهـــا كانت ليلة قرة يمرق فيها البرد إلى العظم، وليس مع المسكين أي لحاف سوى ذلك الجوال الذي اتخذه لحافاً ليتقي به من البرد وشدته.

وكـــان أكثـــر الركاب مثله ليس معهم ما يتدثرون به لأن حكـــومة الظلـــم والطغيان التقطت أكثرهم من الشوارع أما أهل الخـــط الـــذين كانوا لابسين أعبئتهم قبل إلقاء القبض عليهم فهم قلـــيل. وكـــنا نحن (الرفاق الثلاثة) من بين الذين ليس لهم ما يـــتقون بـــه البرد، لأن الزبطية خدعنا بقوله يسألكم البريجدير وتـــرجعون، ولولا أن رحمنا الله برجل يدعى مسعود فالح كان معه هدمة ألقى علينا جزء من لمتنا من شدة البرد ..

وعندما رأى الزبيطية ذلك الشخص الذي لف رأسه وكتفه في الشوال، قال مخاطباً زملاءه من الزبطية:

- ها هو ذا .. الشخص الزايد .. أنت .. أنزل

مخاطباً ذلك الشخص .. غير أن الشخص لم يتكلم. فأعاد علـــيه الكلام مرة ثانية وثالثة، فلم يتكلم (واعتقد أنه لم يكن أي مـــن الركاب، يعرف أن الموجه إليه ذلك الكلام، فخطا الزبطية نحوه ووضع يده على رأسه وهزه ثم قال:

- أنت .. متسمعنيش

وقال أكثر الركاب:

- انزل خير لك ... نحن ذاهبون للإعدام.

فتحــرك الــرجل مرة أخرى ولا أقول الشخص في هذه الرمة، ونزل من السيارة قال الزبطية:

- (مهبول).

وتحركت السيارتان، واستأنفنا السير وتركنا على الأرض وذلــك المهــبول كمــا قال الزبطية، ملتمساً الفرج في وجه الله والــنجاه في أرضه الواسعة أخذت أفكر طوال الطريق في هذا الشخص، وأسأل نفسي، فدار بيني وبينها هذا الحوار:

- كــيف لــم يــر علــى ضوء السيارتين وهو يسير على الطريق؟

- لأن ضــوء الــسيارتين شاحب اللون خوفاً من الطائرات البريطانية.

- كيف كانت الصدفة تجعل السيارتين تقفان في المكان التى كان يوجد فيه هذا الشخص؟ حول السيارتين بغية الحراسة وخوفاً أن ينهزم منهم أحد.

- لا أدري.

- لـــو كـــان هـــذا الشخص خارجاً عن المساجين وأراد أن يركب إلى المرج أو بنغازي لرجا سائق السيارة أن يحمله إلـــى المكـــان الذي يقصده كما جرت العادة ولأطلق علينا السلام قبل أن يختلط بنا ..

- صحيح.

- إذن .. الغلط في العد بادئ الأمر هو الذي سبب زيادة هذا الـــشخص، والناتج هو أن المهبول أجبر على النزول من السيارة وأمره الله، وأرض الله واسعة، وأن الله جعل لكل شيئاً سبباً، وإذا أراد شيئاً هيأ أسبابه.

- صدقت.

لـــم يفكـــر أحـــد من الزبطية والكرابيناري المسئول فيما فكرت فيه، لأن لا يهمهم ذلك، فهل مثل رعاة أغنام (اللحمية) الـــذين هـــم مسئولين عما ينقض من عدد هذه الأغنام التي في استطاعتهم استبدال الكبس الكبير منها بالخروف الصغير لأنهم ملـــزومون بتسليم عدد (رأس) فقط كما لا أدري هل فكر أحد من المساجين في مثل هذه الأسئلة المحتملة، أم لا ....

أما أنا ...... بعد تفكير عميق وأخذ ورد بيني وبين نفسي فـــي مـــسألة ذلـــك الشخص فقد سلمت لي نفسي ورضت بهذه الفكرة.

داخـــل الـــسـجـــن

وصلنا إلى بنغازي، وقد مالت النجوم إلى مغربها وتنفس الـــصبح أو كـــاد. وكانت المدينة هادئة والشوارع خالية إلا من الحـــراس الذين كنا نراهم كلما مرت السيارتان في سيرهما من شارع إلى آخر إلى أن وقفنا أمام باب السجن الرئيس.

وبعـــد جهـــد جهيد ونقاش حاد استغرق أكثر من نصف ســـاعة بين حارس الباب من الداخل الذي يخشى فتح الباب في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل، وبين الكرابيناري المسئول عـــنا مـــن الخارج سمعنا صرير مزلاج الحديد من الداخل، ثم انفـــرج الـــباب وادخل ذلك الطابور الطويل من المساكين الذين حكم عليهم الظلم الإيطالي بتهمة نهب أموال الحكومة ..

أمـــوال حكومة امتصت دماءهم وسلبت حقوقهم أكثر من ثلاثـــين عاماً.. أموال حكومة قد سرقت أرزاقهم وتركتهم للفقر والمـــرض والجوع .. فلما أتى يوم الخلاص، يوم رجوع الحق إلـــى أصـــحابه، وأخذ ممتص الدماء وسالب الأرزاق في حرق

المخازن والأثاث قبل أن ينهزم، وبعد أن فقد آخر أمل في البقاء في الأرض التي استنزف أموالها ورجالها وسيطر على حكمها ومرافقها بالظلم والعدوان.

وتقدم بعض هؤلاء المضطهدين لأخذ جزء قليل مما امتص من دمائهم وسلب أرزاقهم قبل أن تلتهمه النيران كما التهمت الكثير من قبض عليهم ووسبقوا إلى هذا السجن بتهمة سرقة الأموال الحكومة التي طالما سرقت أموالهم واغتصبت حقوقهم في ظل القانون وسلطة السيف والمدفع ..

فلم يلتئم السيف وسكت المدفع واختنق القانون الغاصب المستبد وأخذ يلفظ آخر الأنفاس وانطلق الشعب من براثن الخوف والإرهاب، ونقض عنه القيود والأغلال التي كانت تكبله وتمنعه من المقدرة على أخذ حقه الحلال والوصول إليه، وتشجع البعض من هؤلاء على رد ما شرق منهم أيام جبروت اللص الصريع .. فهل هذا حرام ؟... وهل هذا ظلم وعدوان؟.... هل في أخذ أشياء هي من حقهم المغصوب وعرقهم المسكوب شيء يعاقب عليه؟

إن جرم جناه هؤلاء المساكين، ما داموا ينتزعون أشياء من فم النيران قبل أن تلتهمها وتأتي على يقينها؟ هل النيران

أولـــى بالتهام هذه الأشياء من رجوعها إلى أصحابها ودافعي ثمنها؟

لا والله .....

ولكـــن الظلـــم والعدوان والبغض والكراهية من الحكومة المنهـــزمة للمـــواطن الذي بقى وعاش بالرغم من جميع أنواع الاضطهاد والتشريد والإبادة طيلة سنين الحكم الاستبداد ....

يحرم إذا أقر الأمر من هذه الأشياء ولتطعم النيران فهي أولى من حيازة العرب لها وليساق إلى السجن من تقدم إلى أخذ تركة الحكومة المنهارة حتى لا يتشجع غيره ...

وبعـــد دخولنا من باب السجن سلمنا الكرابيناري المسئول عنا إلى حارس الباب وبعد أن عدنا وأحصى عددنا سلمنا بدوره (راس راس) إلـــى سجان، حيث قادنا إلى داخل زنزانة كبيرة وأغلق علينا الباب إلى الصباح ..

وفـــي الـــصباح، أعطى كل واحد منا بطانيتين صغيرتين إحـــداهما للفـــراش والثانـــية للغطاء فكان الواحد منا كلم غطّى وجهـــه وصـــدره تعرت رجلاه، وإذا غطى رجليه بقى نصفه

الأعلـــى بدون غطاء .. وفرقت علينا صحون الأكل والملاعق وأصبحنا من نزلاء السجن (المحترمين).

وعـــندما يحـــين وقت الغذاء أو العشاء يخرج الجميع من الغـــرفة إلـــى الـــباحة وكل ماسك صفحته ويمر على الطاهي ليغرف له مغرفاً من أراد الحساء، ويعطيه من الخبز لا تكفي لا طعـــام طفـــل صغير، وعلى كل من يتناول حقه (الوفير) من الطعـــام (الشهي) أن يدخل إلى الدار شاكراً وبدون تعفف أما أحسن وجبة في زعمهم فهي التي تتألف من المكرونة والبزيلاء مـــنذ أن خلقنـــي إليه، أو بكلمة أصح منذ أن عرفت أن أتناول الأكـــل دون أن يطعمني أحد .. فكنت أقول بعزلها عن الطعام وإعطائها إلى من كان بجانبي. ولحسن الوفادة والإكرام بنا جعل بيت (الراحة) المرحاض داخل الغرفة، وكان عبارة عن حائط قلـــيل الارتفاع يحيط بنصف (برميل) إذا جلس فوقه الإنسان يحجبه إلى صدره وإذا وقف يحجبه إلى نصفه الأسفل، ليس له ســـقف .. أستغفر الله .. فسقف، سقف الغرفة. أما بابه فستارة مـــن الخـــيش. فكان الجالس لإزالة الضرورة يسمع الجميع ما يخـــرج من غائط وريح وبول. فكانت رائحته تملأ علينا الغرفة زيـــادة عما يملأها من الأنفاس المتعددة الكريهة. وكان الداخل

إليه يخيل إليه أنه داخل إلى خلية من خلايا النحل لكثرت الذباب الواقع على جدرانه والحائم حوله ...

حقـــاً إنها حياة الذل والمسكنة والخضوع والاستعباد، هذه الحـــياة الـــزهيدة التـــي حرنا فيها بظلم الحكومة وذلك الضابط اللعين...

وقبل النوم من كل مساء، يفتح علينا باب الزنزانة، ويدخل عليـــنا السجان، فنقوم له كما يقوم إخوان (الزاوية) عندما يأتي لـــزيارتهم رجـــل عظيم، ونصطف له جنبا إلى جنب على طول جـــدران الغرفة كما يصطف أهل المتوفي للمعزين، حتى ينتهي مـــن عـــدنا ويخرج ويقفل علينا الباب بالمزلاج من الخارج ... وكـــان عدم الغسل وتبديل الملابس وعدم النظافة قد أكثرت القمل حتـــى صـــار يدب على ملابس الجميع بكثرة لم نستطع القضاء عليه لا بالقتل ولا بإلقائه في النار لأنه توالد وتناسل بكثرة.

أما البق فهو من السكان الأصليين وكان يوجد بكثرة من قـــبل أن نحتل (أرضه) وأن قلمي الكليل لما عجز كل العجز أن يـــصف كثرته وأعماله الجهنمية كل الوصف، ولكنه مع هذا كلـــه كـــان على أدب ولياقة وحسن ضيافة، فهو أكثر حياء من القمل، حيث كان يختفي بالنهار ويظهر في الليل.

أمـــا البـــرغوث فهـــذا لا حـــد له ولا حصر وهو الأم وأصـــعب مـــن البق والقمل، ففي النهار يتقافز هنا هناك، ولا نـــستطيع القبض عليه إلا بشق الأنفس، وإذا قبضنا على واحد وأعدمناه أخذ بثاره منا الآلاف في المساء، فتصلينا وخزا اشد من وخز الأبر إلى الصباح، وإذ ذاك تنصب هجماتنا (البيادة دون الطائـــرات والـــسكان الأصليين .. على القمل فقط حتى تسيل الدماء).

فكانـــت حياتـــنا داخل تلك الغرفة الجهنمية حياة مليئة بالاضطهاد والذل والمرض والجوع والعفونة والذباب والقمل والـــبق والبـــرغوث. فهـــي أكثـــر نكداً من دار وصفها أحد الشعراء بقوله:

دار ســـكنت بهـــا أقـــل صـــفاتها — إن كثرت الحشرات في جنباتها
الخـــير عـــنها نـــازح متـــباعد — والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته — كم أحرم الأجفان طيب سباتها
وبنـــيت تـــسعدنا بـــراغيث بهـــا — حتى السموم أخف من لذغاتها
أين الصوارم والقنا من فتكها — فينا، وأين الأسد من وثباتها
ابـــدا تمـــتص دمـــاء فكأنهـــا — حجامة لبدت على كاساتها

فعقلت يا رب السماوات العلا　　يا رازقا للوحش في فلواتها
اسكنتني بجهنم الدنيا ففي　　أخراي هب لي الخلد في جناتها
واجمع بمن أهواه شملي عاجلا　　يا جامع الأرواح بعد شتاتها

الخروج من السجن

مكثنا بالسجن صابرين على قلة الغذاء، ومتحملين كثرة القمل والبق وشدة لسع البراغيث، لم نعرف متى ينتهي هذا المصير المؤلم المرير لأننا غير محكوم علينا بمدة نعرف انتهاؤها. وهكذا بقينا على جمر الانتظار تقلقنا الشكوك والأوهام ويحيط بنا الخوف الشديد من ظلم الحكومة التي لا يهمها سفك دماء الآلاف من البشر في سبيل أغراضها العدوانية لأتفه الأسباب، فما بالك بحفنه قليلة قد ألصقت بها تهمة الثورة ضدها وسلب أرزاقها وهي في أشد أوقاف الحرج وقتال العدو على الأبواب.

وعندما تهدف صرح الظلم والطغيان، وانهزام أعداء الشعب وجلائه شر انهزام، ودخلت القوات البريطانية المدينة، أفرج علينا بعد دخولها بأسبوع. فخرجنا فرحين مسرورين بالخروج من السجن وبالخلاص من الدولة الغاشمة الظالمة.

غير أن الفرج بالخروج من السجن أخذ يتلاشى شيئاً

فشيئاً، لا ننام لنجد ما يحملنا إلى درنه. الطريق مدمرة والسيارات المدنية غير مسموح لها بالسفر. وأخذنا نطرق أبواب مكاتب الحكومة الجديدة لأجل الحصول على رخصة للسفر في سيارة مدنية أو عسكرية. وطال بنا الانتظار حتى أننا عزمنا على السفر سيراً على الأقدام.

وأخيراً رحم الله وتكرمت السلطة البريطانية بإعطائنا رخصة لسيارة مدنية ولكن إلى المرج فقط بحجة أن نفوذها لا يتعداه. فأجرنّا سيارة يملكها أحد الإيطاليين المدنيين ناوين إذا لم نحصل لها على رخصة من المرج نستأنف السير على الأقدام.

وصلنا المرج بعد الظهر، وأخذنا نترجى في الحكومة بقية ذلك اليوم ويمين بعده، واتخذنا من الجامع مأوى إليه حيث لم يكن لنا من تعرفه ولا مكان يسعنا لكثرتنا.

وفي اليوم الثالث تحصلنا على أمر للسيارة واستأنفنا السير بعد أن ركب معنا إيطاليان مدنيان من سكان المدينة درنه أحدهما يدعى (كاسبيرو) والثاني يدعى (جرميا). اعتقد أنهما مخلفان من بقايا الجيش الإيطالي المشتت المنهزم. وما أن تحركت السيارة حتى وضع كل منهما (معرقية) بيضاء على

رأسه لتخفي ملامحه. وسرنا على طريق مراوه لأن جسر وادي الكوف قد نسق من قبل القوات الإيطالية المنهزمة.

وصلنا إلى الفيده بعد غروب الشمس بكثير، وقد أطبق ظلام الليل على الكون ولفه بسواده الدامس. فدخلنا إلى أحد المنازل المهجورة للمبيت به إلى الصباح. فلم نشعر إلا وأربعة من الجنود البريطانية المسلحين يدخلون علينا البيت، وأخذوا يكلموننا بلغتهم التي لم نعرف منها سوى كلمة سنوسي، فقال أكثرنا:

- (أيوة ... سنوسي)

فقال أحد الجنود:

- (انكش سنوسي سواء سواء)

ثم أخذوا يدخلون الغرف ويجرون منها واحدة بعدى واحدة ويتكلمون مع بعضهم، وأخذ الإيطاليين اللذين معنا الخوف والذعر الشديدان، وأخذ أحدهما ينزوي عن ضوء النيران المشتعلة ويقول باللغة العربية:

- (خليك لابس المعرقية) وإذا سألوك تكلم بالعربية.

وبعـــد أن انتهـــى الجـــنود من جولتهم في جميع الغرف خرجوا من المنزل دون أن يلحقنا منهم أي أذى ...

لــك الحمد يا الله ... وشكرا لك يا رب .. ها هو الفرج قــد بـــان .... وها هو كابوس السيطرة الإيطالية الجاثم على الــوطن العزيـــز قد انزاح ... وهاهو الحق قد أخذ يرجع إلى أهلـــه وذويه .. ها هو الدخيل المستعمر المتغطرس قد أصبح ذلـــيلاً بعـــد أن فقـــد حماية الحكام الجائرين وسبق الحكومة المـــصك ظلماً وعدواناً على رقاب المواطنين هأنذا أرى الذل والخوف يسيطران على الإيطاليين المتغطرسين هاهما يلذذان بالعـــرب وبلبس العرب وباللغة العربية .. ها هم ينظران إلى المـــنازل وقـــد خلت من سكانها الغاصبين .. ها هي البيوت المغتصبة خالية خاوية على عروشها، قد خرج منها الغاصب مذموماً مدحوراً..

ها هي بيوتهم العامرة التي اغتصبوا أرضها وأجلوا أهلها وشـــيدوا علـــيها بنيانهم، قد جعلها ربي قاعًا صفصفا، قد حلت بساكينها الكوارث ودارت بهم الدوائر .. ها هي الأرض .. ها هـــي الأرض المباركة قد طهرت إلى الأبد من نجس الغاصب ومن شره وعدوانه ورجعت إلى أهلها الأصليين ..

هــا همــا ينظــران إلى بيوت الظلم التي شيدتها دولتهما إيطاليا بقصد ملئها بالآلف الإيطاليين والقضاء على أهل الوطن وتــشريدهم مــن هذه الأرض التي عاش عليها أكثر من ثلاثة عــشراً قــرنا ... هاهما ينظران إلى البيوت التي شيدت على الأرض الصالحة لاستثمارها والاستيلاء على مواردها وحرمان هذه الفئة من العرب لتذل وتكون خاضعة لحكمهم وسيطرتهم .. هــا هما ينظران إلى البرة وقد امتلأت على سعتها على سعتها بالسيارات والأسلحة المحطمة لدولتهم المتشدقة المتعجرفة ...

سبحانك يا رب، تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الحكم وأنــت على كل شيء قدير .. سبحانك اللهم وبحمدك ... لا إله إلا أنــت وحــدك لا شريك لك، أنت القاهر فوق عبادك وأنت الحكيم الخبير. شكرا لك يا رب وألف شكر على هذه المنة حيث أزحت عن هذا الوطن دولة الظلم والاستبداد، وأرجعت إلى أهله حقهم المسلوب...

وفي الصباح .. بعد أن طلعت الشمس وأضاءت بنورها، الربــى والــوهاء وبــإذا كل شيء كما خلقه . خرجت من ذلك المنــزل منفــردا وأردت البصر فيما حولي، فإذا جميع المنازل خالــية من أهل البغي والعدوان. وسرت على الطريق خطوات

وخطـــوات وأنا أسبح وأكبر الآن على الفضل العظيم. ومبتهجاً بشروق شمس الحرية والاستقلال لهذا الشعب الذي عان الكثير من أنواع السيطرة والنفوذ والاستعباد ....

ها هي الشمس مشرقة، والأشجار تتمايل مطربة، والكون يبـــسم، والطيور تترنم بأناشيد الفرح والابتهاج لخلاص الوطن من القيود والأغلال ومن نفوذ الحكم وسيطرة الحكام ....

وقد خيل إليّ أن كل شيء طرب نشوان وكأنه في عرس بعد مأتم وأحزان .. وكأني أسمع هتافات تملأ الفضاء .

عـــاد الحق المسلوب .. لقد تحرر الوطن المغلوب .. لقد أصـــبحت البلاد ملكاً لأبنائها .. لقد قهر الغاصب الدخيل .. لا خوف ولا إرهاب بعد اليوم، بل حرية وعمل وبناء.

ولـــم يحرجني مما أنا فيه من سرور ولذة بالاستماع إلى هـــذه الهـــتافات والأصوات، رفقائي ينادونني، فرجعت نحوهم بخطا وئيدة وقلب مبتهج مسرور. وعندما وقفت بجانبهم أخذت أرهـــف الـــسمع علني أسمع تلك الهتافات من جديد لأنهم إليها يـــسمعوا ويبـــتهجوا ويعـــرفوا أن الفرج والسرور يشملان كل الوجود بجلاء الغاصب الدخيل عن الأرض المقدسة.

وركبنا السيارة، وانطلقت بنا على الطريق، تمر بنا على المـــنازل الخالية، وعلى السيارات والدبابات والمدافع المحطمة علـــى طول جانبي الطريق. وكنت واقفاً من لدن ركبت السيارة أمتع النظر وأفرج عن القلب بمرآى تلك الآلات المحطمة، فقال عاشور:

- أجلـــس، خيـــر لـــك من هذا الوقوف الذي يسبب لعينيك المرض من شدة الريح.

- دعنــــي أفتش عن تلك السيارة التي أجبرنا بالركوب إليها بظلـــم ذلـــك الضابط اللعين، لعلى إرهابيين هذه السيارات المحطمـــة دعنـــي أنظر إليها إلى هذه الأسلحة التي طالما خـــوفت بهـــا إيطالـــيا العالم وأرهبت بها شعبنا في جميع الأوقـــات والمناسبات. دعني أنظر إليها وقد تحطمت ولم تـــستطع حمايـــة أهلها وورد الله كيدهم في نحورهم وأنقذ شـــعبنا الضعيف من هذه الأسلحة التي تراها محطمة على جانبـــي الطـــرق دعنـــي أجلو عن قلبي الآلام والأحزان تراكمت عليه بسبب حكم الظلم والاستبداد ...

وظلـــت الـــسيارة في سيرها حتى إذا بلغت ملتقى طرق لملـــودة وقفت عن السير بسبب خلل أصاب محركها فوضعناها

أمام أحد البيوت المهجورة من أهلها وتخلف أكثرنا أملاً في إصلاحها وسار الباقي على الأقدام متحملاً السير في سبيل الوصول إلى الأهل...

وامتدت الخطا وتخلف من لم يستطع مسايرة الأقوياء المتمرنين على السير وكنا ستة، أنا وصاحباي وثلاثة آخرين، في المقدمة يجئنا العزم والشوق على السير إلى أن بلغنا القبة، حيث وجدنا سيارة انجليزية تحمل عائلة عربية إلى درنة كانت مهاجرة في سيدي رافع خوفاً من الغارات الجوية وما رآنا رئيس العائلة السيد محمد العمامي حتى خف لاستقبالنا مرحبا ومهنئاً على سلامتنا من الحكومة الضالمة وخروجنا من السجن البغيض وسألناه عن السيارة فأعلمنا أن الحكومة البريطانية أعجت سيارات كثيرة تحمل المهاجرين والعودة بهم إلى البلاد وطلبنا منه الركوب معه فلبى طلب عن طيب خاطر وهكذا وصلنا إلى البلد العزيز درنة وفي نشوة من الفرح والسرور والحمدلله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا غفور شكور.

حسن بن يوسف اللويمي

الظلم السافر

الفلفولتين المشئومين (1)

في ذات يوم دخل على الجرسون وهو يحمل (فلفولتين) راديو وقال:

– (ارحم والديك يا عرفي بع لنا هذين الفلفولتين) ....

كـــان هـــذا بعد انسحاب القوات البريطانية الأول وكانت هـــذان الفلفولـــتان مـــن صنع بريطاني وكأنهما جديدتين داخل الباكو، ولما سألته من أين حصل عليهما، وقال:

– أتى بهما زوج أمي من المستشفى بعد انسحاب الإنجليز.

فأخـــذتهما منه ووضعتهما فوق الرف، ومرت الأيام، إلى ذات يـــوم داخل على القهوجي الإيطالي المدعو (فبريتي) وما أن وقع نظره على الفلفولتين حتى قال:

– هل تبيع هذين الفلفولتين؟

– نعم.

اتفقنا على السوم، وأخذهما معه وذهب. وفي اليوم التالي يوم أرسلت له الجرسون ليأخذ منه الثمن. فقال:

- غداً أعطيه لك.

رجع الجرسون وأعلمني بما قال. وعندما مررت من أمام في المساء ناداني قائلاً:

- غداً أعطيك المبلغ.

- أعطيه للجرسون لأن المبلغ له.

وأخذ من الجرسون المبلغ. ومرت الأيام، إلى أن كان ذات مساء، وكنت في المنزل فاتح الراديو على محطة القاهرة لسماع نشرة الأخبار التي تذاع في الثامنة والنصف. وكانت السلطة الإيطالية قد منعت وحذرت الاستماع إليها، ولعدم خروج الناس في المساء خشية الغارات الجوية، ولكثرة وشغفي بالإضاعة وتتبعي لإخبارها كنت أقفل المقهى من الساعة الثامنة مساء وأذهب إلى المنزل وأغلق بابه وأفتح الراديو بصوت منخفض لاستمع إلى نشرة الأخبار. إذا بباب المنزل يطرق طرقاً عنيفاً. فذهب الوالد للنظر إلى هذا الطارق العنيف، وكان

الـــوالد أســـبق إلـــى فتح الباب، فوجد اثنين من رجال البوليس أحدهما إيطالي برتبة سرجن والآخر عربي. فقال العربي:

- هل فلان موجود؟

- لا.

- نريد تفتيش المنزل.

ومـــا أنا سمعت والدتي ذلك حتى رجعت تهرول مسرعة ودخلت على الغرفة وهل تلهث، وقالت:

- بوليس ..... بوليس ... (إدور فيك).

أطفـــأت الـــراديو وخرجت مسرعاً إلى الجنان مستخفياً. ودخل البوليس إلى المنزل بغية التفتيش. وفتش البيت وجميع ما فـــيه من غرف ودواليب وصناديق، ومن الجملة صندوق مقفول وديعـــة لرجل بدري. ولما لم يكن للصندوق مفتاح موجود أمر الإيطالي أن يؤتي (وعتلة). وأخذ ينقر بيده على جميع جدران الغـــرف ليـــتأكد هل بها تجويف أم لا، ونزع (فرشه) كانت مبسوطة على الجدار ظنا منه أنها تخفي وراءها دولابًا منحوتاً فـــي الجـــدار. وبعد جهد جهيد وتفتيش دقيق في جميع نواحي البيت قال:

- قـــل لابنك غداً قبل الساعة الثامنة صباحاً يأتي إلى دائرة البولـــيس. ودخلـــت علـــى والدتـــي الجـــنان وأعلمتني بخروجهما، فرجعت إلى المنزل وحدثني والدي بجميع ما حـــدث من أوله إلى آخره. وسألني عن سببه فأجبته: إنني لا أعـــرفه .. ولكن منذ أن فتحت المقهى بعد الظهر وأحد الإيطاليـــين المدنيين جالساً به إلى أن أغلقته بعد المغرب، وقـــد شـــككت فـــي أمره، وأنه بوليس سري وظننت أنه يتجسس على غيري.

وفـــي الـــصباح، ذهـــبت إلى مركز البوليس قبل الساعة الثامنة واستأذنت عند دخولي المكتب. فسألني أحد أفراد بوليس (الباي) قائل:

- ماذا تريد؟

- أنا فلان .. أتيت بناء على طلب من هذا المكتب.

- أمكث خارج المكتب إلى أن يأتي البريجدير.

مكثت خارج المكتب إلى أن قدم البريجدير. وبعد دخوله ببـــرهة يسيرة أمر بدخولي عليه. وما أن دخلت حتى نظر إليّ وقال:

ـ أنت فلان؟

ـ نعم.

ـ أريـد أن أسـألك، وأريد منك أن ترد على جميع أسئلتي بالـصدق، أمـا إذا حاولت أن تكذب عليّ وتضللني فإني سأعاقبك عقاباً شديداً.

ثم قال بلهجة صارمة:

ـ هل سمعت؟

ـ نعم سينيور.

ـ أين كنت البارحة عندما أتينا منزلك ولم نجدك فيه؟

ـ كـنت مدعـوا عـند صهري، ولم آت إلى البيت إلا عند الساعة العاشرة تقريباً.

ـ لقـد انتهينا من السؤال الأول. الآن أريد أن أسألك سؤالاً آخر وأريد منك الإجابة عليه بالصدق.

ـ نعم سينيور.

ـ أريـد مـنك أن تدلنـي على مكان راديو المخابرة الذي عندك. قلت مستغرباً وفي فزع.

- راديو المخابرة الذي عندي !!!!!!؟؟؟؟؟؟؟

- نعم.

- ليس عندي راديو مخابرة ... ولم أره طيلة حياتي.

- لا تنكـــر .. فإن الإنكار لا ينفعك .. لأن لدينا أدلة ثابتة.. أقفالـــك المقهـــى مبكـــراً كل مساء .. وأدلة كثيرة أخرى وسمعنا وسجلنا بعض اتصالاتك بالإنجليز.

- أنا.

- نعم .. حضرتك أنت.

- إذا كان ما تقوله حقاً، فأنا أستحق أكبر العذاب.

فقال بنزة:

- بل القتل.

- نعم سينيور.

- مـــا تـــستحي .. أن تتجسس على حكومتك لدولة عدوة لم تعرفها أكثر من شهرين فقط.

- لا سينيور .. ما كان ذلك أبدا .. والله العظيم.

- لم تزل تصر على الإنكار يا كاذب.

وقـــام من على كرسيه وأخذ يصفعني صفعاً شديداً على وجهـــي إلى أن كلّت يداه . ثم أخذ يركلني برجله إلى أن وقعت علـــى الأرض، وبعـــد وقوعـــي على الأرض، إلى أن خارت عزيمتـــي مـــن شدة الركل وتخدرت جميع إحساساتي الجسمية، فلم أعد أحس شيئاً من الركل والضرب. وعندما كلّ وملّ رجع إلى كرسيه يلهث ثم استراح قليلاً، وقال:

- قم من على الأرض.

وعندما قمت مستنداً إلى الجدار خشية اندفاع، قال:

- أحسن لك أن تخبرني وأنا أضمن لك أن لا يصيبك شيء، أما إذا أصررت على الإنكار فسأبعثك في هذه الساعة إلى المـــرج، وهـــناك تجـــد حسابك وعقابك سواء أنكرت أو اعترفت. ثم سكت لحظة استطرد بعدها:

- أنـــا أعـــرف أنك لم تقدم على هذه الخيانة إلا إغراء من الإنجليـــز وطمعـــاً فـــي الاســـترليني .. صحيح أن لدي الإنجليـــز استرليني كثير .. وكثيراً ما تآمروا به بين الأخ وأخـــيه والابـــن علـــى أبـــيه .. وأنا لا ألومك على هذه

المخابرة ما جمت نتحصل على نصيب وافر من المال ... فأنا كذلك أعمل مثل عملك هذا الواحد من يعطيني دراهم كثيـرة .. وإنما ألومك على أنك لم تقر بالصحيح وتدلني علـى مكـان راديو المخابرة الموجود عندك .. وهذا هو الذي وجعلني أضربك وأعتدى عليك، أنت الإنسان العاقل الطـيب لـذا أرجـو أن تسامحني على ذلك وثق أنه في اسـتطاعتي أن تحصل لك من الحكومة على دراهم كثيرة وأن تبقـى علـى اتصالك بالإنجليز وأن تضللهم بالأخبار حسب إرشادتنا نحن.

ولـم أرد علـيه بشيء فقد عرفت أن لمن ينل شيئاً عن طـريق الـضرب الوجيع والتهديد بإرسالي إلى المرج وحكمه الـشنيع أداء أن يغرينـي باللين والمال ظناً منه أن لجى راديو للمخابرة فاطلعه عليه ولما طال قال:

- لِمَ لَمْ تجب؟

- اقـسم لك بالله أنه لم يكن لدي راديو للمخابرة ولم أعرف حتى حرف واحد باللغة الإنجليزية.

- إن اللغة الإنجليزية غير مهمة يا صديقي.. يوجد كثير من الإنجليـز فـي قلـم المخابرات البريطانية يعرفون اللغة

العربية جيداً، فما عليك إلا أن تتحدث معهم في وقت معين باللغة العربية فقط.

- لقـد قلـت الحقيقة لم يكن راديو للمخابرات.. ولم تصل بالإنجليـز حتى مرة واحدة طول إقامتهم في هذه المدينة ولا بعـد خـروجهم منها .. لم يكن راديو المخابرات ولم أتـصل بالانجليـز حتى مرة واحدة طول إقامتهم في هذه المديـنة ولا بعـد خروجهم منها .. ومن هو حتى أنا يقع اختـبارهم عليّ من بين سكان المدينة أنا إذا أما إذا اتصل بك أحد من الناس وأعلمك بوجود راديو للمخابرة عندي، فأرجـو إحـضاره فـي هـذه الساعة لمواجهتي ومعرفة الـصادق من الكذاب فما كان منه إلا أن مدّ يده إلى درج المكتب وأخرج منه القلقولتين المشئومتين وما أن رأيتهما حتـى عـرفتهما وعـرفت أنهمـا السبب في هذه الوقعة السوداء ولكنه استبشرت وكأنما كنت في لجة وأفقت منها وتلاشت في تلك اللحظة جميع الآلام التي كنت أحسها في نفـسي وفـي قلبـي، وفي جميع أعضاء جسمي المنهار وتلاشـت الأوخام التي كانت تتراقص أمام عيني محزنة سوداء كما تتلاشى السحب عن صفحة بيضاء وسوء عني

ذلك الارتباك الذي كان يسيطر عليّ، وخفت دقات قلبي عن ذي قبل وشعرت بطمأنينة تنزل على قلب المضطرب.

وعندما وضعها (أي القلقوتين) على المكتبة قال:

- هل تعرف هذين؟

- نعم .. ليتك أريتهما لي قبل اللي حصل.

- بالنهاية .. إذن اعترفت بعد أن رأيتهما وفكرت أن لا ينفع الإنكار.

- نعم ليتك .. أعترف بهذين القلقوتين .. لاعن راديو المخابرة كما تقول حضرتك.

- أليس هما احتياطين لجهاز راديو المخابرة الذي عندك وبعتها لتحصل على ثمنها بعد أن عرفت أنك ليس في حاجة إليها، معتقد أن هذه البيع لا يدل على وجود جهاز راديو مخابرة لديك.

- لا .. لا .. ليس ذلك.

- ومن أين تحصلت عليها إذن .. تكلم؟

فقصـــصت عليه قصة الجرسون وشراء القهوجي فبريتي لهما وقلت:

- إنتـــي كـــنت بمثابة الوسيط فقط .. أما الثمن فقد استلمه الجرسون لأن القلقوتين كانتا له .

- هل صحيح ما تقول؟

- نعم.

- وإذا كنت تكذب؟

- أستحق جميع أنواع العذاب.

فوضـــع يده على زر بجانبه وفتح الباب ودخل أحد أفراد البوليس الإيطالي فقال له:

- اذهب وآت بالقهوجي (فبريتي)

وخـــرج ذلـــك الجـــندي، في أقل من ربع ساعة ودخل وبصحبته فبريتي فقال البريجدير:

- هل تعرف هذا؟

مشيراً إليّ ..

- نعم .. نعم أعرفه.

- هذا هو الذي اشتريت منه القلقوتين؟

- وهذا هو الذي تسلم منك الثمن؟

- لا الذي تسلم الثمن هو الجرسون الذي يعمل معه.

- الآن تستطيع أن تذهب إلى العمل.

فلمـــا خرج فبريتي سكت البريجدير قليلاً ثم أخذ يقلب صـــفحات كتاب كان أمامه على المكتبة ثم رفع رأسه ونظر إليّ وقال:

- ما اسم الجرسون؟

- موسى غريب.

- هل تعرف بيته؟

- نعم.

- إذن لنذهب إليه.

ثم التفت نحو البوليس الذي يغيرتي وقال له:

- خذ معك أحد الزبطية وهيا معنا ...

خـــرجنا نحن الأربعة متجهين نحو بيت الجرسون وسرنا إلى أن بلغت بهم الزقاق الذي به البيت مشيراً إلى الباب وقلت:

- هذا هو البيت.

مشيراً إلى الباب

فقال البريجدير للإيطالي والعربي:

- أطـــرقا الباب واسألا عن الجرسون موسى، فإذا أوجدتماه فاســـألاه عن مصدر القلقولتين ثم فتشا البيت تفتيشاً دقيقاً عن أشياء حكومية.

- سمعاً وطاعاً.

وتـــوجها نحو الباب وأمرني البريجدير أن أتبعه، فتبعته إلـــى أن تـــباعد عن باب المنزل، ثم وقف ووقفت وكان موقفنا الـــسوق (بـــذيل الـــسور) عند مدخل زقاق لعيرج وكان أكثر المارة يلتفتون نحوي في أشفاق متسائلين بالصمت والإشارة وقد لفت نظرهم أثر الضرب الذي ترك على وجهي خطوطاً سوداء وكان ذلك الوقت أحلك الأوقات وأشدها ظلماً وعدواناً للمواطنين التـــي تـــرى فيهم أدلة الظلم أنهم يناصرون الإنجليز ويكرهون

الدولة المسيطرة عليهم.

فكان كل يقع في قبضة البوليس في ذلك الوقت العصيب مصيره سجن المرج ومحكمته الظالمة تلك المحكمة التي كانت تـــنفذ رغبات حكومتها العادلة (إيطاليا) وتصدر حكم الأعدام لأتفه الأسباب من هذا الشعب العربي الذي رحب وهتف لجنود بريطانيا المنتصرين الذين يرى في انتصارهم نصر فأحضرنها لـــه. ثـــم رجعـــنا إلى المركز. وبعد أن جلس على كرسيه أو بالأحرى على عرشه قال:

- الآن تـــستطيع أن تذهب إلى بيتك، وتفكر جيداً أننا لازلنا وراءك نتتبع آثارك .. هل فهمت:

- نعم سينيور.

وخرجت...

خـــرجت وفي فمي لعنات لذلك البريجدير اللئيم الذي ظن أن انتـــصار دولـــته ورجوعها إلى هذا البلد الأمين، هو حمله اللذيـــذ الذي يحقق له الانتقام من العرب، فراح يكيل لأبناء هذا الـــبلد أبـــشع الانتقام. فأخذ يقبض ويضرب ويرسل إلى السجن

بـــدون مبـــرر، حـــيث يلقـــي المـــواطن أشد الهوان والتعذيب والاضـــطهاد خـــرجت وأنا ألعن ذلك البريجدير وألعن حكومته التـــي عاشـــت فـــي أرضنا الطيبة ظلماً وفساداً وكيدًا وطغياناً، وأذاقـــت شـــعبنا الأبي الصابر صنوف العذاب وألوان التعذيب والهـــوان، وســـاقت الـــشيوخ والرجال والشباب إلى غياهب، السجون لأتفه الأسباب...

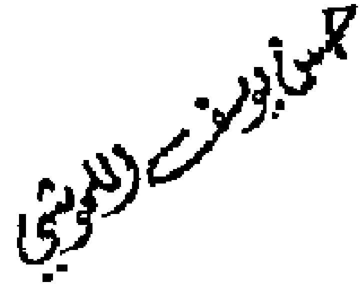
خـــرجت وأنـــا ألعن ذلك المتعجرف الذي ظن أن عودته وعـــودة دولته بعد اندحارها المفضوح المشين، هو القدح المعلا والأمل المرجو والأمنية المصطفاه في البقاء إلى أبد الآبدين في وطننا الأمين. فراح يعبث في الأرض فساداً ويكيل لأبنائها ظلماً وعـــناداً ظناً منه أنه بلغ بأفعاله الشنيعة منتهى المطاف وخاتمة النصر. ونسى أو تناسى أنه رجع إلى وطننا بفضل نجدة حليفته ألمانيا لا بقوة دولته وجنودها الجبناء الرعاديد ....

خرجت وأنا ألعن ذلك البريجدير الذي أطلقت له حكومته الحـــرية الكاملـــة في معاملة المواطنين بأبشع الألوان وبأهون الـــصفات. فـــأراد أن يلـــصق بي تهمة كاذبة أساق بها إلى السجن والمحاكم وصناديق الإعدام .. نعم ... إلى سجن المرج (الشرك)

الذي نصبته دولته الاستعمارية لتنفيذ رغبتها الانتقامية لإبادة بلا هـوادة ولا رحمـة ولا خشية ولا وازع يعدمون العشرات من الأبرياء، لم يراعوا حومة العدل والقانون، ولم يرجموا صغيراً، ولـم يهابـوا خالفاً، فنشروا الفزع في القلوب وبثوا الرعب في الـنفوس، وأطلقوا الظلم ما ردا طاغياً مستكلباً جبارًا، وحسبوا ومـا اتفه حسابهم، وظنوا وما أخيب ظنهم أن نصرهم وبقاءهم مكفـولان إلى الأبد. ونسوا أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه ناصرا الـضعيف مهمـا طال أحد الباغي وعدوان، وأن النصر للحق والاندحار للباطل...

وحقـق الله الأمـل للـشعب المظلوم ورجع إلى نهاية، والـوطن إلى أهله، وانهزمت من جديد دولة الظلم هاربة تجر خلفها خزى الأبد وعار التاريخ، ومسبة الأجيال، والحقد المؤبد الذي زرعه الأجداد في الآباء وسيزرعه الأباء في الأبناء للدولة التـي طغـت وبغـت وظلمت وسجنت وقتلت وفتكت بالشيب والشباب والعجائز والفتيات .. الدولة التي خلفت حقداً مؤبد ناره تـؤجج فـي قلوب أمة هبت اليوم هبة رجل واحد تدفع بيمناها آثار الظلم والظلام، وبيسراها فضلات البغي والحزن والطغيان.

وســـيخط مؤرخوها ما ارتكبت دولة الظلم والطغيان (إيطاليا) وما ارتكبه حكامها الطغاة من الأفعال الدنسة المشينة في شعبنا الأعــزل المكــافح الصبور، أحلك تاريخ لدولة استعمارية على وجه البسيطة.



❖ كتبت هذه القصص سنة 1948 ف

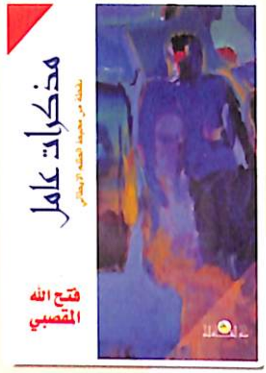
الفهـــرس

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الـموضوع رقم الصفحة

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
جمهورية مصر العربية
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315
E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العـام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجنـاسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضـاءً جديدًا للمعـرفة وللحيـاة.

مجلس الثقـافة العام